

د. ياسين حسين الويسي

ابن خلدون

ونظرته في التصوف



دراسة تحليلية مقارنة

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com





مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

ابن خلدون ونظرته في التصوف
دراسة - تحليلية - مقارنة

اسم الكتاب: ابن خلدون ونظرته في التصوف
اسم المؤلف: ياسين حسين الويسى
جميع الحقوق محفوظة
١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٩ م



سورية . دمشق . ص ب ٤٦٥٠
تلفاكس: +٩٦٣ ١١ ٢٣٢٢٥٤٠
+٩٦٣ ١١ ٥١٤١٦٠٥
موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail:ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج والطباعة
وتصميم الغلاف في مطبعة دار نينوى
القسم الفني دمشق - سوريا
القياس ١٤٥ × ٢١٥
عدد الصفحات: ١٢٢
لوحة الغلاف: د. محمد غنوم

• لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة
كانت، دون إذن خططي مسبق من المؤلف.

د. ياسين حسين الويسي

ابن خلدون ونظرته في التصوف
دراسة . تحليلية . مقارنة

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

Author: Dr. yassein Hossaen Alwaisi
Original Title:Ibn Khaldun and his
view in Sufism

First Edition
٢٠٠٩ - ١٤٢٩

Dar ninawa
Damascus - Syria

الإِهْدَاءُ

إِلَى رُوحِ الَّذِي رَحْمَهُ اللَّهُ
إِلَى وَالَّذِي أَعْزَيزَهُ
وَإِلَى أَسَاذَنِي اعْتَرَافًا مِنِي بِالْجَمِيلِ.

مَكْتَبَةُ
لِسَانُ الْعَرَبِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه وعلى العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد إمام المتقين وعلى آلها أئمها الهدى والدين وصحابته أولى المعرفة المتبرسين ومن نبغ وأجتهد وأفتقى أثراهم إلى يوم الدين.

لقد تشوّقت كثيراً إلى آراء المفكرين العرب الأصالة وطريقة معالجتهم للمواضيع التي كانت سائدة ضمن واقعهم وقد أعجبني على وجه الخصوص المفكر العربي الأصيل (ابن خلدون) لما يتمتع به من أفق رحب جعل الكثير من الأوساط الثقافية تخصه بالبحث والدراسة والتحليل ليس على مستوى الدوائر الثقافية العربية فقط بل داع صيته في الأوساط الإسلامية والعالمية، ولقد حاول بعض أعداء العروبة الطعن في نسب ابن خلدون ولكنهم رد عليهم وخابوا وخسروا فأن الأمة العربية كانت وعلى مر العصور هي السباقة دائماً في مدار العالم بأسره بالمفكرين الذين صاروا محطة دراسات حتى في أوروبا والمستشرقين على وجه التحديد وابن خلدون واحد من هؤلاء فقد خص ببحوث ودراسات عديدة وفي مجالات واسعة فقد عد الواضع المؤسس الأول لعلم الاجتماع، والفيلسوف العربي الأول الذي كتب فلسفة التاريخ والمؤرخ الأول الذي ربط الواقع التاريخي بالسن الكونية والمتكلم الذي فصل وأضاف إلى علم الكلام وتعرض لفرق الكلامية بمختلف آرائها والفقير

المالكي الذي ولد منصب قاضي قضاة المالكية في مصر والأوصولى الذي شرح المحصل للإمام الرازى في علم الصول، والأديب البليغ صاحب القصائد الحسان، والناقد الأدبى الكبير الشارح لقصيدة البردة في مدح الجناب النبوى (صلى الله عليه وسلم) والسياسي الذى برع في توليه عدة مناصب سياسية في دول مختلفة فكان المدر والمشار في كل الأمور والمواقف، فكان تراثاً للأمة في مختلف العلوم والمعارف بل وباستطاعتنا أن نسميه دائرة المعارف الخلدونية. والآن نتناول ابن خلدون من ناحية أخرى وبنظرته الثاقبة والواعية لنواحي الحياة المختلفة، وهذه الناحية هي (التصوف) ذلك الشعور الخاص، والرابطة الخفية بين الإنسان وبين حالقه. لقد تناول ابن خلدون هذا الموضوع من عدة جوانب وبعدة نظرات، فنراه يعرض التصوف كعلم ولد ونشأ وتطور وأخذ مساره في الحياة، وي تعرض له أيضاً بنظرية الفقيه المالكى ويبين موقف الشرع من كل جزئية، ثم يعرض التصوف كفلسفة لروح الإسلام. ثم باعتباره سياسياً فيفترض دور الصوفية السياسية في دول المغرب العربي وموقف الأمراء منهم وموقف العامة منهم. لاشك أنه موضوع شيق بالنسبة لي وأتمنى أن يكون للقارئ كذلك. فلقد تناولت في الفصل الأول: حياة ابن خلدون وأثاره بصورة تفصيلية. أما الفصل الثاني فقد تناولت التصوف وقد ضمنته كذلك نقد ابن خلدون للتتصوف في عصره بصورة عامة والتتصوف المغربي بصورة خاصة، سائلأ الله العلي القدير أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم. وأن يجعل أعمالنا ضمن مرضاته إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جديرين والحمد لله رب العالمين.

الباحث

الفصل الأول

**المبحث الأول: اسمه وحياته
وتراثه الفكري**

اتفق المؤرخون الذين ترجموا له على أن ابن خلدون هو: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن^(١) بن خلدون^(٢).
أما كنيته فكان يُكنى بأبي زيد نسبةً لابنه الأكبر^(٣) ولقد لقب بعده ألقاب منها.

الضرمي: لأنه حفيد وائل بن حجر اليماني الحضرمي^(٤)، ووائل هذا هو الجد العلي لابن خلدون وكان ملكاً بحضرموت حين بلغه ظهور النبي محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ترك ملكته ونهض إلى الرسول محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام (اللهم بارك في وائل وفي ولده)^(٥).

ولقب بلاشبيلي: لأنه أصل بيته من إشبيلية وهي المدينة الكبيرة التي كانت تسمى حمص وكانت قديماً ملك الروم^(٦).

- (١) - حالفهم في ذلك ابن حجر السقلاناني حمد بن علي بن محمد علي (ت ٨٥٢هـ) في أنباء القمر ط١، حيدر آياد، ٢٢٧/٦١٩٧٢. والساخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع بيروت (بدون تاريخ) ١٤٥٤، وأ ابن العمدة الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) شذرات الذهب في أخبار منه ذهب بيروت (بدون تاريخ) ٧٦/٧. جميعهم ذكره عبد الرحيم.
- (٢) - الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ط١ بيروت ١٢٤٨م / ٢٢٧/٦.

- (٣) - تيسير شيخ الأرض ابن خلدون ص ١ بيروت ١٩٦٦م من ٥.
(٤) - الحضرمي: تُنسبه إلى حضرموت وهي بلاد اليمن ينظر السمعاني أبوأسعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ) الأنساب ط١ حيدر آياد ١٩٦٤م ١٨٠/٤.
- (٥) - المصدر نفسه ٤، ١٨٠/٤.

(٦) انظر ياقوت الحموي (ت ٩٩٦هـ) معجم البلدان بيروت ١٩٥٥م، ١/١٩٥.

ولقباً أيضاً بالتونسي: نسبة إلى محل ولادته الذي اتفق المورخون على أنه في مدينة تونس^(١).

ولقب بالقاهري: وذلك بعد رحلته إلى الشرق حيث مصر عام سبعمائة وأربعين وثمانين واستقر هناك ما يقارب من أربعة وعشرين سنة فسمى هناك بالقاهري^(٢).

ولقب بالمالكي: وذلك تمييزاً لذهبته عن مذهب أهل مصر الشافعي^(٣).

ولقب بولي الدين: لتوليه منصب قاضي قضاة المالية في مصر^(٤).

نسبة:

انفتقت المصادر التاريخية على أن ابن خلدون عربي النسب^(٥) وإن الذين شككوا في عروبيته معروفون في عدائهم للعروبة ومنهم من الباحثين المعاصرين الكاتب المصري طه حسين^(٦) الذي اعتمد في شكه هذا على كلام ابن خلدون في كتابه ((التعريف)) حيث قال (لا ذكر من نببي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم

(١) انظر السخاوي الضوء اللامع: ٤٥.

(٢) - ابن خلدون التعريف بأبن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق محمد بن تاویت الطنجي القاهرة ١٩٥٠_١ من

(٣) - تيسير شيخ الأرض، ابن خلدون، ط١، ١٩٦٦، ص. ٥.

(٤) المصدر نفسه

(٥) ابن حزام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (٤٥٦-٤٧٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مصر ١٩٦٢م، ص. ٤٦٠. ينظر ابن حجر العسقلاني أبناء القراء ٥/٣٢٧. السخاوي الضوء اللامع ٤/١٤٥.

(٦) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية د. طه حسين ط١ مصر ١٩٢٥ مص/١-٢ بنظر شرف الدين خليل ابن خلدون، بيروت (بدون تاريخ) ص. ٧. ومحمد عبد الله عنان، ابن خلدون وتراثه الفكري ط٢، القاهرة ١٩٥٣ مص/١٥.

أكثر، وانه سقط مثلكم عدداً^(١)) وهذا الكلام ليس له سندأ علمياً إذ يقول ابن خلدون هذا لا يعني انه شاك في نسبة فهو عربي النسب وهو الرأي الراجح حسب وجهة نظرنا ويؤيد وجهة النظر هذه كتب التراجم والنسابة القديمة^(٢) وعدد من الباحثين المذكرين ((هذا من جهة أما من جهة أخرى فان من شكك بعروبة ابن خلدون لم يستند على أي من الأسس العلمية))^(٣).

ولادته:

اتفق معظم من مترجم سيرة ابن خلدون على أن ولادته كانت في مدينة تونس في الأول من رمضان لسنة اثنين وثلاثين وسبعمائة للهجرة الموافقة السابع والعشرين من أيار(مايس) لسنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة ألف للميلاد^(٤). ولقد خالف في ذلك ابن حجر العسقلاني إذا أضاف سنة على هذا التاريخ^(٥) ونرجح الرأي الأول لأن ابن خلدون قد أكدته في ترجمته لحياته وابن الخطيب وانه رأي الأغلبية^(٦).

أسرته:

يتضح لنا من خلال ترجمة ابن خلدون لحياته أن أسرته كانت

(١) - التعريف بإبلين خلدون ورحالة شرقاً وغرباً من خلدون بيروت طبع الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ١٩٧٩ م ص ٣.

(٢) - جمهرة الأنساب ابن حربه ص ٤٦٠.

(٣) - انظر ساطع الحصري دراسات عن مقدمة ابن خلدون مصر ١٩٥٢ ص ٥٥٢.

(٤) - الميخاوي- الضوء اللامع ١٤٥/٤. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٧٦/٧.

(٥) - لسان الدين محمد بن عبد الله ابن الخطيب(ت ٦٧٧)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط١، القاهرة ١٩٧٥ م ٤٩٢/٢ أيضاً ينظر ابن حسان التعريف من ١٥.

(٦) - ابن خلدون العبر ٧/٢٨٠.

حضرمية الأصل يرجع نسبها إلى وائل بن حجر الصحابي الذي أخذ على عاتقه مهمة تعليم القرآن ونشر الإسلام في اليمن^(١) إن أحد أحفاد وائل بن حجر وهو خالد بن عثمان^(٢) قد رحل إلى الأندلس مع جند اليمن بحدود المائة الثالثة للهجرة بعد الفتح بفترة، وهناك تغير اسمه من خالد إلى خلدون حسب تقاليد وعادات المغاربة، وقد نزل خالد بن عثمان أولاً في قرمونة^(٣) إذ كان من الزعماء المعروفيين بأشبيلية. وقد حكم كrib أشبيلية عدة أعوام إلى أن قتل في أواخر المائة الثالثة^(٤) ولم تقتصر شهرةبني خلدون بالميدان السياسي فحسب بل كانت لهم مكانة وشهرة علمية إذ يعد عمر ابن عمر بن محمد بن خلدون أحد أشراف أشبيلية فيلسوفاً مشهوراً من فلاسفة القرن الخامس الهجري ومن أبرزبني خلدون في مجال العلم إذ نبغ في الطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلكيات^(٥) وفي أواسط المائة السابعة جلو بني خلدون إلى تونس^(٦) وتوطنوا فيها وحافظوا في موطنهم الجديد على مكانتهم المرموقة خدمتهم في ذلك علاقاتهم

(١) - هو: خالد بن عثمان بن هانئ بن خطاب أحد أ宦اد المروخ ابن خلدون هاجر بحدود القرن الثالث الهجري من اليمن إلى الأندلس عرف فيما بعد بخلدون حسب لسان لقوه هناك وعاداتهم إذ يضيفوا (أون) للتكتير، انظر: البستاني، فواد إفرام وآخرون، دائرة المعارف، بيروت .٢٥/٢، ١٩٦٠.

(٢) - ابن خلدون، التعريف، ص ٤.

(٣) - الستانة تابعة إدارياً إلى إشبيلية، ينظر الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤ / ٣٢٠.

(٤) - ابن خلدون، التعريف، ص ٤، والبستاني، فواد وآخرون، دائرة المعارف، ٢٥/٢ - ٤١.

(٥) - هو: كrib بن عثمان رئيس السرة خلدونية في إشبيلية أواخر القرن الثالث الهجري وهو من الذين خلعوا طاعة الدولة المروانية وطالبو بالاستقلال في إشبيلية واغتيل في أواخر المائة الهجري الثالثة أي بحدود عام ثمانمائة وتصعين الميلاد، ينظر: البستاني، فواد ولاخرو، دائرة المعارف، ٤١/٢.

(٦) - ابن حزم، جمهرة الأنساب، ص ٤٦٠، وأبن خلدون، التعريف، ص ٤ - ٥، والبستاني، فواد وآخرون، دائرة المعارف، ٤١/٢.

(٧) - ابن خلدون، التعريف، ص ١.

القديمة الطيبة بملوك أفريقيا.

إذ من المعروف أن أبو حفص^(١) الذي تسبب إليه الدولة الحفصية في تونس وأبناءه الذين حكموا من بعده كانوا ولاة على أشبيلية قبل أن يتولوا ولاية أفريقيا ولمرات عديدة وقد توطدت بينهم وبين بنى خلدون علاقات طيبة شجعتهم على اختيار تونس مهجراً لهم دون غيرها لأفضليتها بنظرهم على سائر القطار المغربية^(٢) ورغم أن والد ابن خلدون آثر العلم على السيف وأنصرف انصرافاً كلياً للعلم والأدب^(٣).

(١) - هو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد البستاني أول التابعين لمهدى المرحدين ولد سنة (٤٨٥) تتسب اليه خطأ تأسيس الدولة الحفصية. بنظر البستاني، فزاد وجماعته، دائرة المعارف، ٢٦٧/٤.

(٢) - ابن خلدون التعريف بقصص.

(٣) - ابن خلدون العبر ٢٨٤/٧.

المبحث الثاني: حياته وعصره

يعد العصر الذي عاشه ابن خلدون وعمل وفكرا من خلاله والذي يمثله القرن الثامن الهجري - الرابع عشر للميلاد كان من عصور التحول والانتقال في العالمين العربي والغربي، تحول وانتقال نحو النهوض والانبعاث في العالم الغربي وتفكك وانحطاط في العالم العربي^(١) لأن شمس الحضارة الإسلامية أخذت بالأفول في هذا القرن فainما توجه البصر سواء إلى الحياة السياسية أم الاجتماعية أم التفكير يواجه حقيقة مرأة على كل الأصعدة حقيقة التقهقر والتراجع والانحطاط^(٢) وهذه حقيقة يلمسها الخاص والعام فقد توالت في هذا القرن على العالم العربي الإسلامي كوارث عدة منها هجمات التتر في الشرق في الشرق^(٣) وتقلص حكم العرب المسلمين في الأندلس غرباً وضعف الأسر الحاكمة وتنافسها ودخولها في مؤامرات وصراعات بعضها ضد البعض لا غاية ولا نهاية لها^(٤) فضلاً عن هجمة الطاعون الجارف الذي خاف الخراب والدمار^(٥) كما أسهم في هذا التقهقر انتشار التفكير الخرافي وسيطرة الجمود الفكري. كل ذلك خلف أوضاعاً مرتباًة مضطربة تسودها

(١) - الحصري، ساطع دراسات عن المقىمة من ٥٢، والبستانى قواد وجامعة، دائرة المعارف ٢٩/٢.

(٢) - الجابري، محمد عايد، العصبية والدولة الدار البيضاء، ١٩٧١، ص ١٩.

(٣) - المسوطي؛ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، تاريخ الخلقاء، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، ط١، مصر ١٩٥٢، ص ٤٦٩ - ٤٧٠، والجابري، العصبية والدولة، ص ١٩.

(٤) - الجابري، العصبية والدولة، ص ١٩.

(٥) - ابن خلدون، التعريف، ص ١٥.

الفوضى من كل ناحية وبعمها الاضطراب من كل جانب، البلاد المغربية كان لها النصيب الأكبر والأقوى والأشد من هذه الفوضى وذلك الاضطراب^(١) لذلك سُنسلط الضوء على النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية.

الجانب السياسي:

شهد هذا القرن تفككاً في التشكيلات السياسية الرئيسية التي أخذت على عاتقها حمل لواء الحضارة العربية الإسلامية مشرقاً ومغرباً، فالدولة العباسية أصبحت أثراً بعد حين. إمبراطورية الموحدين تلاشت واضمحلت، وهجمات البدو ازدادت حدة وضراوة وضفتاً على الأطراف، كما أن الحروب والصراعات بين الدوليات والإمارات تزداد وفي الأندلس وشواطئ أفريقيا يتركز الضغط الصليبي^(٢) إذن مسرح الأحداث السياسية يغلي. في المشرق امتد نفوذ التتر على شكل هلال شمالاً إلى البلاد التركية وجنوبياً إلى بلاد الهند أما جوفه فكان يمثله العراق أي بلاد فارس وكان قد مضى على احتلال بغداد (٦٥٦ - ١٢٥٨م) بحدود قرن^(٣) ودولة الترك هي الأخرى وسمعت رقمة نفوذها غرباً وشمالاً في آسيا الصغرى وتوغلت في بعض بلدان أوروبا الشرقية وكان يعيقها فقط انشغالها بالترويج ماتهم^(٤) وسلامة الماليك الحاكمة في القاهرة استمرت ببسط نفوذها على أعلى وادي النيل منذ منتصف القرن الثالث

(١) - الجابري، المصيبة والدولة، ص ٢٠.

(٢) - الجابري المرجع نفسه ص ٢٠.

(٣) - العبيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٧ - ٤٧٥. والجابري، المصيبة والدولة، ص ٢١.

(٤) - الجابري، المصيبة والدولة، ص ٢١.

عشر^(١) وإذا ما ألقينا نظرة على غرب العالم العربي الإسلامي فان في هذا القرن كانت الحالةأسوأ مصيراً إذ تقلص النفوذ العربي الإسلامي في الأندلس وانحصر نفوذه تدريجياً إلى غرناطة وما يليها شرقاً وجنوبياً حيث كانت دولة بني الأحمر أواخر ملوك الأندلس تحاول ترميم كيانها المتداعي أمام هجمات الأسبان من النصارى^(٢) وما يهمنا في هذا العصر البلاد المغربية التي عاش فيها ابن خلدون إذ شهدت الجيرة الأندلسية حركتين سياسيتين اجتاحتا المغرب واحدة بعد الأخرى الأولى حركة المرابطين والثانية حركة أو دعوة الموحدين^(٣). وقد عانى المغرب في هذا القرن . الثامن الهجري - من اضطرابات وفوضى^(٤) . ونستطيع القول بأن الفترة التي أعقبت سقوط امبراطورية الموحدين وتفككها إلى دولات شكلت أزمة عنيفة ومنعطفاً مهماً في تاريخ المغرب السياسي جعلت عروش الأمراء والسلطانين عرضة للانقلابات والهزات التي تعصف بها باستمرار. وربما يعد هذا القرن تاريخاً للأضمحلال التدريجي في عيمة البلاد العسكرية والسياسية^(٥) لقد قدر لابن خلدون أن يعيش في خضم هذه الأحداث والمؤامرات إذ بدأ حياته السياسية بالعمل لدى صاحب تونس. وتقلل بعد ذلك بين قصور المرinيين بفاس^(٦) وبلاط بني

(١) . لاكوسنـايـهـ العـلـامـ اـبـنـ خـلـدـونـ . تـرـجـمـةـ مـيشـالـ سـلـيـمانـ بيـرـوـتـ طـ٢ـ ، ١٩٧٨ـ . صـ ١٠١ـ .

(٢) . الـجـابـريـ . الـعـصـيـةـ وـالـدـوـلـةـ . صـ ٢٢ـ .

(٣) . اـبـنـ الـأـحـمـرـ نـيـثـيرـ فـرـائـدـ الـجـمـانـ صـ ٢٤ـ .

(٤) . لاـكـوـسـنـايـهـ اـبـنـ خـلـدـونـ صـ ١١٠ـ .

(٥) . مـاجـدـ . عـبـدـ الرـزـاقـ مـسـلـمـ اـبـنـ خـلـدـونـ فيـ ضـوءـ النـظـرـيـةـ الـاشـتـراكـيـةـ . بـنـدادـ ، ١٩٧٦ـ . صـ ٢٢ـ . وـالـعـبـادـيـ . اـحمدـ مـخـtarـ . فيـ تـارـيـخـ الـمـقـرـبـ وـالـأـنـدـلـسـ . وـالـاسـكـنـدـرـيـةـ (ـبــ تــ)ـ . صـ ٨١ـ .

(٦) . اـبـنـ خـلـدـونـ . التـعـرـيفـ . صـ ٥٥ـ . ٦٨ـ . ٦٩ـ . وـالـسـخـاوـيـ . الضـوءـ الـلامـعـ . ١٤٥٤ـ .

الأحمر بالأندلس وتولى منصب الحجابة لدى أمير بجاية^(١) وبهذا كله لعب ابن خلدون دوراً مؤثراً إذ استعمال القبائل والعشائر إلى من يشايعه من السلاطين متلاعباً بمقدراتهم^(٢) إلى أن قرر اعتزال الحياة السياسية متخلياً عن فتن السياسة ومخاطراتها آثرا التخلص والانقطاع عن الشواغل كلها مهتماً إلى الخلوة باحثاً عن الاستكانة مشرعاً إلى التأليف والكتابة^(٣) من هذا كله يتضح أن الحياة السياسية في هذا العصر تحديداً - القرن الثامن الهجري - اتسمت بالفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار وحالة من التفكك والتراجع / العالم الإسلامي عامه وببلاد المغرب خاصة وانعکس هذا حتى على الحياة الاجتماعية والفكرية وبالتأكيد لم يقف ابن خلدون متفرجاً على مسرح الأحداث بل كان واحداً من المشاركين في واقع الأحداث مؤثراً ومتأثراً فيها لاسيما وهو المعروف عنه مغامراته السياسية وحبه للمنصب والجاه والمكانة السياسية بل إن طموحه كان لا يقف عند حد.

الجانب الاجتماعي:

المعروف عن مجتمع المغرب العربي في العصر الوسيط بأنه مجتمع قبلي فهو عبارة عن مجموعة قبائل متحالفه أحياناً ومتطاخنة أحياناً أخرى وحيثما تتحالف فيما بينها تكبر وتشكل قوة عسكرية وسياسية يحسب حسابها. والذكور جميعهم يشكلون تلك القوة إذا لا يقتصر حمل السلاح على فئة دون غيرها بل حتى المكانة الاجتماعية تقاس على من تتوفر فيه

(١) - ابن خلدون. التعريف، ص ٨٤ - ٩٧ - ٩٨. والمسحاوي، الضوء اللامع، ١٤٥/٤.

(٢) - ابن خلدون. التعریض، ١٢٠ - ١٢٥.

(٣) - المصدر نفسه، ص ٢٢٨ - ٢٢٩. وواقيه علي عبد الواحد، عبد الرحمن بن خلدون، ص ٨٣.

الصفات القتالية كالمعرفة بأساليب الحرب والشجاعة والقوة الجسمانية وغير ذلك لأن القبيلة كانت عبارة عن جيش يعيش دائماً في حالة استعداد للقتال وإن أصبحت فريسة سهلة للقبائل المفيرة عليها فهو صراع من أجل البقاء^(١).

وتلك القبائل لا تدفع الضرائب ولا تخضع للمراقبة وإنما تكتفي الدولة منهم بمجرد الولاء والتبعية الاسمية: حتى وان كانت الدولة في أوج قوتها^(٢) واستقرار الحكم متوقف على امتلاك الحاكم عنصرين مهمين:-

الأول:- قدرة الحاكم على المحافظة على الوحدة والانسجام داخل الحكم وخارجـه.

الثاني:- تمكـنه من المحافظة على ولاء القبائل الأخرى المتحالفة معه أو الخاضعة لسلطـانـه بالـقوـة والـغـلـبـ منـجهـأـخـرىـ.

هـذـانـ العـنـصـرانـ مـتـوقـفـانـ عـلـىـ مـدـىـ توـقـرـ المـالـ لـدـىـ الـحـاـكـمـ وـالـذـيـ يـأـتـيـهـ إـمـاـ عـنـ طـرـيقـ التـجـارـةـ أـوـ عـنـ طـرـيقـ الغـزوـ^(٣)ـ وـالـعـرـوـفـ أـنـ الـحـكـمـ فيـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ فيـ الـقـرـنـ الثـالـمـ الـهـجـرـيـ لمـ يـعـتـمـدـ وـلـوـ نـظـرـياـ عـلـىـ أـسـاسـ مـذـهـبـيـ أـوـ دـيـنـيـ وـإـنـمـاـ عـلـىـ الشـوـكـةـ وـالـغـلـبـ وـمـاـ يـضـعـفـ الـحـاـكـمـ أـوـ تـقـوىـ إـحـدـىـ الـوـلـاـيـاتـ حـتـىـ يـتـأـجـجـ الـصـرـاعـ مـنـ اـجـلـ الـحـكـمـ فـلـاـ يـوـجـدـ استقرارـ بلـ الفـوـضـيـ فيـ الـحـكـمـ وـالـسـيـاسـةـ^(٤).

ونتيجة لهذه الصراعات يحدث اختلال في المنظومة الاجتماعية فإن

(١) - الجابري، العصبية والدولة. من ٢٦ - ٢٧.

(٢) - المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٣) - المرجع نفسه، ص ٢٩ - ٢٠.

(٤) - المرجع نفسه، ص ١١.

كان النصر لإحدى الفئتين المتصارعتين تكون هناك الفنائيم التي تؤثر على الطبقية الاجتماعية إما إن حصلت الهزيمة والخسارة فهنا الحال أسوأ فمع الخسارة المادية هناك خسارة معنوية فالانكسار والإحباط له دوره السلبي على المستوى الاجتماعي.

وإذا أن الصراعات قائمة فحالة الاستقرار الاجتماعي تعتبر مفقودة والطابع المميز للجانب الاجتماعي في ذلك العصر القوسي^(١). استفاد ابن خلدون كثيراً من عصره في دراسته لمجتمعه وتكوين نظريته الاجتماعية فعد مؤسساً لعلم الاجتماع لأنه سبق علماء الاجتماع في تكوين هذه النظرية فقد أثر فيه عصره كثيراً^(٢).

نستنتج من هذا أن العاملين السياسي والاجتماعي متداخلان إلى حد ما وإفرازات أي منهما تؤثر على الآخر، ونتيجة الحروب والصراعات السياسية تتأثر المنظومة الاجتماعية، والميزان الاجتماعي تتباوب كفتاه صعوداً ونزولاً بسبب الصراعات السياسية كما أن العادات والتقاليد والمواثيق الاجتماعية تتحكم في الموازين السياسية.

إذن هي علاقة متنية وإنما الأول لم يشهد استقراراً كان الجانب الآخر، الاجتماعي، غير مستقر هو الآخر في ذلك العصر، القرن الثامن الهجري ..

الجانب الفكري:

بعد أن تعرفنا على الجانبين السياسي والاجتماعي في عصر ابن خلدون

(١) - المرجع نفسه، ص ٢٢ - ٢٥.

(٢) - الخشاب، أحمد، التفكير الاجتماعي، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، مصر ١٩٧٠، ص ٢٩٦ .٣٠٧

واللذين تميزا بالقلق والاضطراب كانوا حائلاً دون قيام حركة فكرية نشطة سوى الاستثناءات هنا وهناك. فالمملوك والسلطان الذين لعبوا دوراً مهماً في توسيع النشاط الفكري من خلال تشجيع ورعاية العلم والعلماء في القرن المنصرم لم يتمكنوا من الاستمرار بهذه الرعاية وهذا التشجيع في هذا القرن لأنهم انشغلوا بعروشهم المتداعية لذا فقد شهد الجانب الفكري في هذا العصر تراجعاً وتقهراً^(١). وقد أعطى لنا ابن خلدون وصفاً دقيقاً وشاملاً لحال العلم وأهله في عصره إذ يقول ((إن المغرب والأندلس، لما ركبت ريح العمran بهما وتناقصت العلوم بتناقصه أضمر حل ذلك منها إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفارق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة))^(٢) ويضيف في مجال العلوم الشرعية والنقلية ((أنها نفت أسوافها.... وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية.... وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالغرب لتناقص العمran وانقطاع سند العلم والتعليم))^(٣) أما علوم القرآن من تفسير وقراءات فقد انتهى البحث فيها واقتصر الناس على تلخيصها ونظمها وكذلك الشأن فيما يتعلق بعلم الحديث إذ يخبرنا عنه ابن خلدون ((فلقد انقطع في هذا العهد تخریج شيء من الأحاديث واستدركها على المقدمين))^(٤) وإذا دققنا النظر على الحياة الفكرية في ذلك العهد لوجدنا أن الناس تركوا المناظرات بين الفقهاء وهجروا الجدل ويعود ذلك لنقص العلم والتعليم في الأمصار العربية

(١) - الجابري، المصيبة والدولة، ص ٣٧ - ٢٨.

(٢) - ابن خلدون، المقدمة، بيروت(ب. ت)، ص ٤٨١

(٣) - المصدر نفسه، ص ٤٣٦.

(٤) - المصدر نفسه، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٤٣.

والسلامية^(١) حتى علم الكلام لم يعد ضرورياً بل حتى باب الفقه ناله التراجع إذ أغلق باب الاجتهاد واقتصر الناس على آراء الأئمة الأربعـ أبو حنيفة وأبي حنيفة والشافعـي وابن حنبل) وإذا كان هذا الحال العلوم النقلية الشرعية فكيف كانت العلوم العقلية^(٢).

الثانيـ التصوف الذي انقلب من تجربة وذوق ومشاهدة إلى شعوذة وتضليل عند بعض المتصوفة فقد وصل كثيـرـ من المتصوفة إلى أسوأ حال في هذا القرن^(٣). وبما أن الفلسفة تمـتازـ بقدرتها أكثرـ من غيرها من العـلوم على الإـجـابةـ عن مشـكلـاتـ التـارـيخـ الكـبـرىـ لكنـ لمـ يـسـتـمـرـهاـ المؤـرـخـونـ المسلمينـ بشـكـلـ فـعـالـ لـلـأـسـبـابـ الـأـنـفـةـ الـذـكـرـ^(٤)ـ وـنـتـيـجـةـ لـاـ تـقـدـمـ وـخـلـافـاـ لـمـ ذـهـبـ إـلـيـهـ بـعـضـ الـمـؤـرـخـينـ نـقـوـلـ:ـ هـذـهـ الـأـجـوـاءـ انـعـكـسـتـ دونـ شـكـ عـلـىـ عـامـةـ وـخـاصـةـ النـاسـ لـكـنـ كـانـ هـنـاكـ نـخبـةـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـفـكـرـينـ اـسـتـطـاعـوـاـ أـنـ يـخـتـرـقـوـ سـيـاجـ الـعـصـرـ دـوـنـ الـهـجـرـ بـأـرـائـهـ أوـ التـأـثـيرـ الـمـباـشـرـ فيـ الـأـوضـاعـ الـفـكـرـيـ السـائـدـةـ آـنـذـاكـ.ـ وـمـعـ أـنـ الـاشـتـغالـ فيـ أـغـلـبـ الـعـلـومـ الـعـقـلـيـةـ كـانـ يـصـعـبـ الـجـهـرـ بـهـ وـالـحـيـاةـ الـفـكـرـيـ وـالـأـدـبـيـ جـمـيعـهـ مـرـتـ بـأـزـمـةـ حـتـىـ أـنـ تـشـعـرـ الـأـنـدـلـسـيـ فيـ هـذـهـ الـعـصـرـ كـانـ يـلـفـظـ أـنـفـاسـهـ الـأـخـيـرـةـ لـهـذـاـ السـبـبـ قـلـ الـإـنـتـاجـ الـفـكـرـيـ^(٥)ـ لـكـنـ مـعـ هـذـاـ لـمـ يـنـطـقـيـ توـهـجـ الـثـقـافـةـ فـقـدـ بـرـزـ شـعـرـاءـ كـبـارـ مـثـلـ لـسـانـ الدـيـنـ الـخـطـيـبـ.

(١)ـ الجـابـريـ، المصـبـيـةـ وـالـدـوـلـةـ، صـ.٢٩ـ.

(٢)ـ أـبـنـ خـلـدونـ، الـمـقـدـمـةـ، صـ.٤٤٨ـ.٤٦٧ـ.

(٣)ـ بـالـفـتـشـاـ، أـنـخـلـ جـنـثـالـ، تـارـيـخـ الـفـكـرـ الـأـنـدـلـسـيـ، تـرـجـمـةـ حـسـنـ مـوـنـسـ، الـقـاهـرـةـ طـ.١ـ، ١٩٥٥ـ، صـ.١٣٧ـ.

(٤)ـ الجـابـريـ، المصـبـيـةـ وـالـدـوـلـةـ، صـ.٤٠ـ.٢٤ـ.

(٥)ـ رـوـزـ نـاثـلـ فـرـانـزـ عـلـمـ التـارـيـخـ عـنـ الـمـسـلـمـينـ تـرـجـمـةـ صـالـحـ اـحـمـدـ الـعـلـيـ، بـغـدـادـ ١٩٦٣ـ، صـ.١٣٧ـ.

ومؤرخون كبار كابن خلدون ومحدثون وأعلام في فنون الفكر
الأخرى^(١).

(١) - بانتشيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٤ - ٢٥.

المبحث الثالث: شيوخه وتلاميذه وأثاره

شيوخه:

نشأ وترعرع ابن خلدون في أسرة عريقة معروفة بحبها للعلم وأهله فكان أبوه من رجال العلم والأدب إذ اهتم بابنه عناية كبيرة وأخذ عنه الابن والأدب والكتابة وحسن الخط وتتمذج ابن خلدون على أيدي كبراء العلماء والفقهاء من أهل تونس ومن^(١) الواقفين إليها.

ومن أبرز شيوخه:-

أولاً: محمد بن أحمد العبدري التلمساني الألبى: ولد عام ستمائة وإحدى وثمانين هجرية أصله من جالية الأندلس من أهل أبله نشا في تلمسان^(٢) وقرأ فيها كتب التعليم إذا قرأ المنطق والأصولين وحذق فيما يبعد شيخ العلوم العقلية. أخذ عنه ابن خلدون الأصولين والمنطق وسائر الفنون الحكمية والعلمية^(٣) وأنقطع به وأخذ عنه^(٤) وشهد لابن خلدون

(١) - آيلة: هي قرية حمص في دمشق .. كثیر من العلماء والأعلام ينتسبون إليها منهم محمد بن إبراهيم الإيلي : ينظر ابن ماكولا، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر الأمير(ت ٤٨٧)، الإكمال في رفع الأرباب عن المؤتلف في الأسماء والكنى والأنساب، بيروت ١٩٦٢، ١/١٣٠ - ١٣٢ (هامش).

(٢) - ابن خلدون، التعريف، ص ٢٢.

(٣) - المصدر نفسه، ص ٢١ - ٢٢.

(٤) - السخاوي، الضوء الامامي، ١٤٥٤، وان العماد، الحنبلي، شذرات الذهب، ٧/٧٦.

بالتفوق ولا نفالي إذا قلنا يعد من أبرز شيوخه^(١) وكان الطلاب ينهاون عليه لانتشار علمه واستهار ذكره ولوصفه بقدمه في العلوم^(٢) كانت وفاته عام سبعمائة وسبعة وخمسين بفاس^(٣).

ثانياً: أبو محمد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الحضرمي:- كان خاتمة الصدور وصاحب القلم الأعلى بفاس متصل الاجتهد ولا يفتر له قلم ولديه سبعة عام ستة وسبعين وستمائة للهجرة^(٤) أصله حضرمي وبنو عبد المهيمن من بيوتات سبعة برع في العربية والحديث والأصيل والأدب والتاريخ والعرض^(٥) إذ يقول عنه ابن خلدون ((إمام المحدثين والنعامة في المغرب... لازمته وأخذت عنه سماعا وأجازة الأمهات السنت وكتاب الموطأ... وكتبا كثيرة شذت عن حفظي))^(٦) توفي بتونس عام تسعه وأربعين وسبعمائة إثر الطاعون الذي ظهر في تونس^(٧).

ثالثاً: أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي: أصله من المغرب جاء مع السلطان أبي الحسن مع جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه إلى تونس وبعد شيخ القراء بال المغرب يقول عنه ابن خلدون ((قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع))^(٨) أخذ العلم والعربية

(١) - ابن خلدون التعريف، ص ٢٢.

(٢) احمد بابا التبكتي، ابو العباس سيدى احمد بن احمد بن عمر (ت ٣٦١هـ)، نيل الابتهاج على هامش ديباجة المذهب لابن فردون، ط١، مصر ١٢٥١، ص ٢٤٥.

(٣) ابن القليطي، جذوة الاقتباس، ٣٠٥.

(٤) - المصدر نفسه/٢، ٤٤٤.

(٥) - ابن الخطيب الاحاطة في أخبار غرناطة ٤/١١ والمقرى، نفح الطيب ٧/٣٨٤ - ٣٨٥.

(٦) - ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ٤/١٨.

(٧) - ابن القاطبي، جذوة الاقتباس، ١٢٢.

عن مشيخة فاس^(١) سمع عليه ابن خلدون عدة كتب وأخذ عنه العربية وأجازه إجازة عامة^(٢).

وابعاً: أبو عبد الله شمس الدين محمد جابر بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسان القيسي الواد آشي؛ ولد سنة ستمائة وثلاث وسبعين في تونس ونشأ فيها وجال في البلاد المشرقة والمغاربية وأستكثر من الرواية^(٣).

كان محدثاً مقرأً مجدوا له معلافة بالنحو واللغة والحديث ورجاله مشهود له بالعلم ويدرك أنه من جرفه الطاعون عام سبعينات وتسعون وأربعين^(٤) سمع عليه ابن خلدون كتاب الموطأ وكتاباً آخر في العربية والفقه وقراءة القرآن وأجزء إجازة عامة^(٥).

خامساً: أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي؛ ولد سنة سبعينات وثمان عشرة. كان متقدماً في معارف شتى، عارفاً بعقد الشروط، وأخذها بحفظها وافر من الرواية، شاعراً مجيداً، كاتباً بليغاً، حسن الخط^(٦). وامتاز بحل الفوامض لفهمه السريع فضلاً عن امتيازه ببيان فضل ونباهة قدر كانت وفاته سنة ثلاثة وثمانين وسبعينات^(٧) يقول عنه ابن خلدون: ((كان ابن رضوان من مفاخر المقرب في براعة خطة

(١) - ابن خلدون، التعريف، ص ٢١

(٢) - ابن فريحون المالكي (ت ٢٩٩هـ)، الدبياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الحميدي، القاهرة ١٩٧٢، ١٩٩٢ - ٢٠١.

(٣) - المصدر نفسه، ص ٣٠٠ - ٣٠١

(٤) - ابن الخطيب الاحاطة في أخبار غرناطة، ٤/١٨.

(٥) - ابن خلدون، التعريف، ص ١٨.

(٦) - أحمد بابا، التبكري، نيل الابتهاج، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٧) - ابن القاضي، حذوة الاقتباس، ٢/٤٣٦ - ٤٣٧.

وكلة علمه وحسن سمعته وإجادته في فقه الوثائق والبلاغة في الترسيل عن السلطان وحوك الشعر والخطابة على المنابر)^(١).

سادساً: أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي التازي: وهو من أهل مدينة فاس ويعرف بابن شعيب كان من أهل المعرفة بصناعة الطب^(٢) ويرع في ميدان الشعر وأحكام النجوم والحساب والأصول والنحو والإنشاء^(٣) يذكر لنا ابن خلدون عنه انه.(برع في اللسان والأدب والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها وكانت له إمامية في نقد الشعر)^(٤) توفي بتونس سنة تسع وأربعين وسبعمائة^(٥).

سابعاً: أبو حسن المريني وهو من الشيوخ الذين يقتدي بهم^(٦). وبعد من شيخ الفتيا في المغرب وأمام مذهب مال وكان لا يجارى في الفقه ووفور الفضائل جاء إلى تونس مع السلطان أبي الحسن المريني^(٧). أصله من قبيلة سطة وله مشاركة تامة في الحديث والأصولين وديانة شهيرة. توفي غريقاً في أسطول أبي الجسم المريني عام تسعه وأربعين وسبعمائة للهجرة^(٨).

ثامناً: شمس الدين محمد بن احمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسى التلمسانى: من أهل تلمسان^(٩) ولد فيها سنة

(١) - ابن خلدون. التعريف، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) - ابن القاطبي جذوة الاقتباس، ١٩٩/١.

(٣) - ابن الأحمر نثير فرائد الجنان، ص ٢٣٦.

(٤) - ابن خلدون. التعريف، ص ٤٨. واحمد بابا. التبكتبي، نيل الابتهاج . ص ٦٨.

(٥) - ابن الخطيب. الإحاطة في أخبار غرناطة . ٢٧٧/١.

(٦) - احمد بابا. التبكتبي نيل الابتهاج، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٧) - ابن خلدون. التعريف، ص ٢١ - ٢٢.

(٨) - ابن القاطبي. جذوة الاقتباس، ١/ ٢٢٨ - ٢٢٩.

سبعمائة وعشرة ونشأ فيها ثم رحل مع أبيه إلى المشرق ثم رجع إلى القاهرة فأقام فيها وقرأ على شيوخها وعلمائها^(٣).

كان ابن مرزوق طيب الحديث، عارفاً بالأبواب، بارع الخط، متسع الرواية يكتب الشعر وله تصانيف كثيرة في فنون عديدة، فارس منبر غير هباب^(٤).

توفي سنة سبعمائة وإحدى وثمانين^(٥).

تاسعاً: أبو عبد الله محمد يحيى بن علي بن النجار التلمساني: وهو من أهل تلمسان^(٦). أخذ العالم عم مشايخها. كان إماماً في علوم التجيم وأحكامها وما يتعلق بها استفاد من رحلته إلى المغرب إذ درس على شيوخها وتوجه إلى تلمسان بعلم كثير وهو من جاء مع السلطان أبي الحسن المريني^(٧) مشهود له ذكائه الزائد توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة^(٨).

عاشرأ: أبو عبد الله محمد بن محمد الصباغ الخزرجي المكناسي: الفقيه المحدث^(٩) كان مبزاً في المنقول والمعقول وعارفاً بالحديث ورجاله وإماماً في معرفة وقراءة كتاب الموطأ، أخذ العلوم عن شيخ فاس

(١) - ابن القاطبي، جذوة الاقتباس، ١/٢٢٥. وابن فرجون، الدبياج، ٢/٢٩٠. وابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ٢/٢١٠.

(٢) - ابن خلدون، التعريف، ص. ٤١.

(٣) - ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ٢/١٠٤.

(٤) - أحمد بابا، التبكتي، لين ابتهاج، ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٥) - ابن القاطبي، جذوة الاقتباس، ١/٢٠٢. وابن خلدون، التعريف، ص. ٤٧.

(٦) - ابن خلدون، التعريف، ص. ٤٧.

(٧) - أحمد بابا، التبكتي، نيل ابتهاج، ٢٤٢.

(٨) - ابن القاطبي، جذوة الاقتباس، ١/٢٠٣. وابن خلدون، التعريف، ص. ٤٥.

ومكناس^(١). وكان فقيهاً شهيراً عالماً حاز قصب السبق في المعمول والمنقول وكان من كبار العلماء الذين اصطبغهم السلطان أبو الحسن^(٢). توفي في واقعة الأسطول العريق عام تسعه وأربعين وسبعمائة^(٣).

أحد عشر: أبو عبد الله محمد بن سعد بن برايل الأننصاري: أصله من بلنسية من جالية الأندلس أخذ عن مشيخة بالنسبة وأعمالها وكان إماماً في القراءات السبع بل وبعد شيخ القراءة في تونس وقد أجاز ابن خلدون إجازة عامة وخاصة وختم ابن خلدون القرآن عليه إحدى وعشرين جلسة جمعها ختمة واحدة^(٤).

اثنا عشر: أبو عبد الله محمد بن محمد بن احمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقرري التلميسي: قدم غرناطة بصحبة أبي زكريا يحيى بن تاشفين عام سبعمائة وتسع وخمسين^(٥) تميز بالفقه والتفسير والعربية وحفظ الأخبار والحديث والتاريخ والجدل والمنطق والشعر والتدوين^(٦) شغل منصب قاضي الجماعة بفاس وتلميسي، توفي سنة سبعمائة وتسع وخمسين^(٧).

ثلاث عشر: أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بم محمد بن خلف بن الحاج البلافيقي بلافيقي الأصل مروزي

(١) - ابن خلدون. التعريف ص ٤٥.

(٢) - احمد بابا. التبيكتي، لين الابتهاج ص ٢٤٢.

(٣) - ابن القاظي. جذوة الاقتباس، ٢٠١/١.

(٤) - ابن خلدون. التعريف. ص ١٥٣١٠.

(٥) - ابن الخطيب الاحاسنة غرناطة ٤/٢٦٢.

(٦) - احمد بابا. التبيكتي، لين الابتهاج ص ٢٥٠.

(٧) - ابن القاضي. جذوة الاقتباس ١/٢٩٨ - ٢٩٩. ابن خلدون.

النشأة والولادة والسلف^(١).. ذو بлагة عظيمة، فارس منابر غير هياب^(٢) يُعد من شيوخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس وهو متقنن في أساليب المعارف وأداب الصحابة للملوك^(٣) رحل في طلب العلم قدِيماً وحديثاً وحصل من المعمول والمنقول فضلاً عن كونه شاعراً وأديباً ومصنفاً^(٤) توفي عام سبعمائة وواحد وسبعين^(٥).

رابع عشر: أبو عبد الله محمد بن السلام بن يوسف بن كثير: قاضي الجماعة المالكية بتونس ولد عام ستمائة وستة وسبعين كان إماماً حافظاً متقدناً في علوم الأصول والعربية والكلام والبيان، فصريح اللسان، صحيح النظر، قوي الحجة عالماً متقدناً في علوم الأصول والعربية والكلام والبيان، فصريح اللسان، صحيح النظر، قوي الحجة عالماً بالحديث^(٦) وهو المشار إليه بالبيان والبيان ما قرن به فاضل من العلماء الأرجح عدلاً جزلاً في أحكامه وبعد إمام الفقهاء والنحاة^(٧) سمع عليه ابن خلدون الموطا للأمام مالك وأفاد منه أجزاء، توفي في الطاعون الجارف عام سبعمائة وتسعة وأربعين^(٨).

خامس عشر: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور التدرومي: نسبة في صنهاجة، بُرز في الفقه على مذهب المالكية، تولى القضاء في

(١) - ابن فرحون، الدبياج، ١٤٥/٢.

(٢) - ابن الخطيب، الاخصاص في أخبار غرناطة، ١٤٥/٢.

(٣) - ابن خلدون، التعريف، ٦١.

(٤) - أحمد بابا، التبكتبي، لين الابتهاج، ٢٥٥.

(٥) - ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ١، ٢٩٥.

(٦) - ابن فرحون، الدبياج، ٢٢٩/٢. وابن خلدون، التعريف، ص، ١٩.

(٧) - أحمد بابا، التبكتبي، لين الابتهاج، ٢٤٢.

(٨) - ابن خلدون، التعريف، من ١٩.

زمن السلطان أبي الحسن^(١).

كان من يشار إليهم بالفقه والمنطق^(٢). تولى القضاء في مدينة فاس وتلمسان توفي بتونس إثر الطاعون عام تسع وأربعين وسبعمائة^(٣) سادس عشر: أبو القاسم محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم الفساني البرجي: وهو من أهل برجه^(٤). فاضل مجمع على فضله كان قاضياً بمدينة فاس.

كان كاتب السلطان أبي عدنان وصاحب الإنشاء والسر في دولته. اجتهد في تحصيل العلم ويرز في الشعر والنشر والفقه^(٥) وكان ثاقب الذهن، حسن الخط، يجيد تفسير الكتاب. يعد نسجاً وحده، مستبعداً في الأدب. توفي عام ستة وثمانين وسبعمائة^(٦).

السابع عشر: أبو عبد الله بن أحمد بن علي بن يحيى بن محمد ابن القاسم بن حمود بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ويعرف

(١) - المصدر نفسه.

(٢) - أحمد بابا. التبيكتي، نيل الابتهاج. ص. ٢٤٢.

(٣) - ابن القاضي، جذوة الاقتباس. ١/٣٠٢.

(٤) - برجه: - مدينة في الندلس كانت تسمى بهجة لبهجة منظرها ونظرتها. ينظر:- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج المرؤس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، الكويت، ١٩٦٩، ١٦، والحموي، معجم البلدان. ١/٢٧٤.

(٥) - ابن القاضي، جذوة الاقتباس. ١/٣١١. وابن خلدون، التعريف. ص. ٦٤.

(٦) - ابن القاضي، جذوة الاقتباس. ١/٣٢١. وابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غناطة. ٢/٢٩٣. أحمد بابا التبيكتي، نيل الابتهاج. ص. ٣٦٧.

بالشريف التلمساني: ولد سنة سبعمائة وعشرة^(١) نشأ في تلمسان وأخذ
العلم والفقه وأصول الكلام عن شيوخه^(٢).

مشهود له وفور العقل وحضور الذهن واتساع باع علمه وعظمته قدره
وميوله للنظر والحججة وكان أصولياً متكلماً جاماً للعلوم القديمة
والحديثة.

يعد أحد الرجال الكمال علمًاً وذاتاً وخلقًا، عالماً بعلوم جمة من المنقول
والمعقول حتى بلغ مرتبة الاجتهد توفي عام سبعمائة وواحد
وسبعين^(٣).

ثامن عشر: أبو العباس أحمد بن إدريس بن البجاني المالكي: الإمام
العلامة المحقق وبعد كبير العلماء ببجاية^(٤).

كان حافظاً لذهب مالك متقنًا في المعارف والعلوم جمع بين العلم
الغزير والدين المتنين وخرج بين يديه جماعة من الفضلاء والعلماء^(٥) كان
ورعاً زاهداً أخذ عنه ابن خلدون^(٦).
كانت وفاته عام ستين وسبعمائة^(٧).

تلاميذه:

مثلاً تأثر ابن خلدون بشيوخه كان له تلاميذ تأثروا به، تقاولوا معه
وتلاميذه ليس لهم عدد لأيمانتنا أن كل من تناول بالبحث والتقصي فكر

(١) - أحمد بابا، التبيكتي، نيل الابتهاج، ص ٢٥٥ - ٢٥٧.

(٢) - ابن خلدون، التعريف، ص ٦٢.

(٣) - أحمد بابا، التبيكتي، نيل الابتهاج، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٤) - المصدر نفسه، ص ٧١. وابن خلدون، التعريف، ص ٢٤٧.

(٥) - ابن فرحون، النبيان، ١/٢٥٥.

(٦) - أحمد بابا التبيكتي، نيل الابتهاج، ص ٧١.

(٧) - المصدر نفسه، ص ٧١.

ابن خلدون يعد تلميذاً من تلامذته إلى جيلنا هذا وستتناول أبرزهم.
 أولاً: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن عمر التونسي المالكي المعروف بالوانوغي: ولد سنة تسع وخمسين وسبعمائة في تونس ونشأ فيها وسمع من مساندتها^(١) عني بالعلم وبرع في الفنون واشتغل في التدريس وأمتاز بذكائه المفرط وفهمه الحسن وشعره الحسن وكثرة نوادره^(٢) سمع من ابن خلدون الحساب والهندسة والأصولين والمنطق^(٣) مات بمكة سنة ثمانمائة وتسعة عشرة.

ثانياً: بدر الدين محمد بن بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر القرشي المخزومي الاسكندراني المالكي المعروف بأبين الدماميني^(٤): ولد بالإسكندرية سنة ثلاثة وستين وسبعمائة تفقه بها وتفوق في النظم والنشر والخط ومعرفة الشروط واشتغل في العلم ويكتب التجارة^(٥). درس بعدة مدارس واشتهر ذكره وأخذ عن ابن خلدون وأبن عرفة وعن الجلال البلقيني^(٦). من مؤلفاته الفواكه البدوية وتحفة الغريب في حاشية مفتي البیب وشرح التسهيل وغيرها. توفي سنة ثمانمائة وسبعين وعشرين للهجرة^(٧).

ثالثاً: أحمد بن محمد بن أحمد البسيلي: لم تقف المصادر على مولده.

(١) - ابن العماد، الحنفي، شذرات الذهب، ١٣٨/٧.

(٢) - ابن حجر العسقلاني، أنباء الفتن، ٢٣٩/٧.

(٣) - أحمد بابا، التبكتبي، نيل الابتهاج، ٢٨٦.

(٤) - الزركلي، الأعلام، ٢٢١/٢.

(٥) - ابن العماد، الحنفي، شذرات الذهب، ١٨١/٧.

(٦) - ابن حجر العسقلاني، أنباء الفتن، ٩١/٨.

(٧) - السخاوي، الضوء اللامع، ١٨٥/٧، والزركلي، الأعلام، ٥٧/٦.

بعد علامة ومفسراً وله تقييد جليل في التفسير أخذ عن ابن خلدون وأبن عرفة والبطروني^(١) أصله من تونس. توفي سنة ثمانمئة وثلاثين للهجرة^(٢). رابعاً: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر العجسي التلمساني المعروف بابن مرزوق: وهو علامة حجة وحافظ ومحقق ومصنف^(٣) ولد في سنة سبعمائة وست وستين للهجرة في تلمسان^(٤) اشتغل ببلاده وسمع من جده وأبن خلدون^(٥) من تصانيفه الروضة والحديقة وشرح التسهيل والروض البهيج وغيرها. توفي بتلمسان سنة ثمانمئة وأثنين وأربعين للهجرة^(٦).

خامساً: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن نعيم بن محمد غنام المالي النحوي المعروف بالبساطي: ولد في بساط عام ستين سبعمائة ثم انتقل إلى مصر واشتغل بها في عدة فنون وكان في شبابه نابغة الطلاب^(٧). تولى القضاء في القاهرة مدة عشرين عاماً ولم يعزل منه حتى مات قاضياً. برع في فنون المقول والعربة والبيان والأصولين والفقه أخذ عن ابن خلدون والسخاوي والشعابي^(٨). من تصانيفه المغني والفقه وشفاء الغليل وتوضيح المقول وتحرير المنقول. توفي عام ثمانمئة وأثنين وأربعين

(١) - أحمد بابا، التبكتي، نيل الابتهاج ص ٧٧.

(٢) - الزركلي، الأعلام ١/٢٢٧.

(٣) - أحمد بابا، التبكتي، نيل الابتهاج ص ٢٩٢.

(٤) - البستاني، هناد وجماعة، دائرة المعارف، ٤/٤٢٠.

(٥) - السخاوي، الضوء اللامع ٧/٥٠.

(٦) - أحمد بابا، التبكتي، نيل الابتهاج ٢٩٧.

(٧) - ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب ٧/٤٤٥.

(٨) - الزركلي، الأعلام ٥/٣٢٢ . - أحمد بابا، التبكتي، نيل الابتهاج ص ٣٠٠.

للهجرة^(١).

سادساً: محمد بن محمد بن أحمد: ولد سنة سبعمائة وثمان وستين تفقه وسمع الحديث وكان صاحب هنون وحسن المحاظرة محبًا للصالحين، ولبس تدريس المسلمين في مصر سنة ثمانمائة وثلاث للهجرة أخذ أصول الفقه عن ابن خلدون وآخرين.

أهم مصنفاته شرح التسهيل في الفنى وألفية الحديث والعمدة وأختصر كثيراً من المطولات توفي سنة أربع وأربعين وثمانمائة^(٢).

سابعاً: تقى الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد العبيدي البغدادي الأصل الرازي المعروف بالمقريزى:- نسبة إلى حارة في بعلبك اسمها المقارزة ولد في القاهرة سنة سبعمائة وستين نشأ بها^(٣). تفقه على مذهب الحنفية ثم شافعياً كان علماً من الأعلام، مؤرخاً، محدثاً اشتهر ذكره في حياته وبعد موته الحنفية في التاريخ^(٤). من تصانيفه كتاب الموعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ويعرف مخطوط المقريزى، والسلوك في معرفة دول الملوك وتاريخ الأقباط وغيرها^(٥) توفي في القاهرة سنة ثمانمائة وخمس وأربعين للهجرة^(٦).

ثامناً: أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن

(١) - السخاوي، الضوء الامع ٧/٧.

(٢) - احمد بابا، التبكتى، نيل الابتهاج، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٣) - السخاوي، الضوء الامع ٢/٢.

(٤) - ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب ٧/٢٥٤.

(٥) - الزنجلي، الأعلام ١/١٧٧ - ١٧٨.

(٦) - السخاوي، الضوء الامع ١/١٧.

علي بن أحمد المعروف بابن حجر العسقلاني: نسبه إلى عسقلان، المصري المولد والمنشأ والدار والفواة سبعمائة وثلاثة وسبعين، حفظ القرآن العظيم وتولع بالنظم وقال الشعر الملحق وطلب الحديث^(١) قام ابن حجر برحلات عديدة لمصر والشام والجaz واليمن كانت سبباً في اتصاله بكثير من الفقهاء والعلماء والعلماء ولقب يحافظ عصره^(٢).

برع في الفقه والعربي وانتهت إليه معرفة الرجال وعمل الحديث ومن مصنفاته: تعليق التعليق، فتح الباري، فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال، تهذيب الكمال، تقريب الغريب والدرر الكامنة وأنباء الغمر وغيرها^(٣).

تاسعاً: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود الأصبهاني القرنطاني الأصل المالكي المعروف بابن الأزرق^(٤): ولد بمالة سنة ثمانمائه واثنتين وثلاثين ونشأ بها^(٥).

يعد عالماً اجتماعياً سلك طريقة ابن خلدون وتتأثر به وأخذ عنه الكثير ومن مؤلفاته: الابير المسبوك في كيفية آداب الملوك، تخبير الرياسة وتحذير السياسة بدائع السلك في طبائع الملك وغيرها^(٦).
توفي سنة ثمانمائه وست وسبعين للهجرة.

(١) - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٧/٢٧٠، والزركلي، الأعلام، ١/١٧٨.

(٢) - السخاوي، الضوء اللامع، ٢/٢٧٧، والزركلي، الأعلام، ١/١٧٨.

(٣) - ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب، ٧/٢٧١، ابن ماكولا، الأكمال، ١/١٢.

(٤) - الزركلي، الأعلام، ١/١٧٨، والسخاوي، الضوء اللامع، ٢/٤٠.

(٥) - السخاوي، الضوء اللامع، ٩/٤٠ - ٢١.

(٦) - ابن الأزرق، محمد بن علي بن محمد (ت ٨٩٦هـ)، بدائع السلك في باائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، بغداد ١٩٧٧، ١/٧٣.

شفاء السائل في تهذيب المسائل: وهو كتاب خصصه ابن خلدون لمسألة التصوف إذ يعد بمثابة الفتوى ولا سيما وأن باب الاجتهد قد أقبل في ذلك الوقت^(١) وفي هذا الكتاب يعرض ابن خلدون يه جذور التصوف في طبيعة النفس الإنسانية وتطوره ومختلف اتجاهاته وموقف السنة منه ويحاول إيجاد تفسيرات منطقية كمبريرات شرعية لظهور التصوف في الإسلام مادام لا يتعدى حدود السنة^(٢) ونشر هذا المؤلف مترجمًا لعدة لغات الفرنسية منها والتركية وغيرهما^(٣).

ثانياً شرح قصيدة البردة: شرحها شرحاً بدائعاً دل فيها على انفساح ذراعه وتفنن إدراكه غزاره حفظه^(٤).

ثالثاً: ملخص كتب ابن رشد: مع أن ابن خلدون لم يذكره في مؤلفاته إلا أنها نعتقد له نستند في ذلك على قول لسان الدين الخطيب إذ يأتي على ذكره في ترجمته لحياة ابن خلدون^(٥). ولا مجال للشك في صحة قول ابن الخطيب كونه ابن عصره وصديقه. كما لم يعرف فيلسوف عربي لم يكرس جزءاً بسيطاً من وقته لتلخيص الكتب الفلسفية القديمة وشرحها كالفارابي وأبن سينا وأبن رشد جميعهم كانت لهم شروح وملخصات^(٦) ولا ندرى لماذا لم يذكر لنا ابن خلدون مؤلفة هذا.

(١) . أوميل، علي، الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون، ط٢، بيروت ١٩٨٥، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) . المرجع نفسه، ص ١٨٧.

(٣) . عبد الجبار عبد الرحمن ذخائر التراث العربي الإسلامي، ط١، البصرة ١٩٨١ - ١٠٩/١.

(٤) . ابن الخطيب، لسان الدين، الاحاطة في أخبار غرناطة، ٥٠٧/٢.

(٥) . المصدر نفسه، ٥٠٧.

(٦) . خليل الحبر وآخرون، الفكر الفلسفي في مائة سنة بيروت ١٩٦٢، ص ١٦.

ربما يعود السبب كون الفلسفة في تلك الفترة كانت مدانة ويُكفر من يشتغل بها لهذا نجد أن ابن خلدون تكرر لهذا المؤلف كي يبعد الأنظار عنه وهي حيلة دفاعية وقائية.

رابعاً: لقلب المحصل في أصول الدين: هو ملخص محصل الإمام فخر الدين ابن الخطيب الرازي^(١).

خامساً. كتاب في الحساب^(٢).

سادساً. ملخص في المنطق^(٣).

سابعاً: ملخص عن بلاد المغرب: وهو مؤلف لوصف بلاد المغرب أقاصيها وأدانيها وجبارها وأنهارها، قراها وأمصارها، القارئ له كأنه يشاهد المغرب وهو عبارة عن اثنين عشر كراساً ألفه ابن خلدون تلبية لرغبة تيمورلنك^(٤).

ثامناً: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرياً: ذكره حاجي خليفة^(٥) وهو مؤلف عبارة عن تعريف بابن خلدون من حيث نسبه وبيته ونشأته ومنعطفات حياته ومشاهداته والمناصب التي تولاها . تم تحقيقه من قبل الطنجي^(٦).

(١) - ابن الخطيب لسان الدين الاحاطة في أخبار غرناطة ٥٠٨/٢، وكتاب عمر رضا، معجم المؤلفين ١٨٩/٥.

(٢) - ابن الخطيب لسان الدين الاحاطة في أخبار غرناطة ٥٠٨/٢، والزركلي الأعلام ٢٣٠/٢.
(٣) - المصدران نفسها، الصفحتان نفسها.

(٤) - ابن خلدون، التعريف، ص ٣٧٠.

(٥) - حاجي خليفة، الأديب مصطفى بن عبد الله (ت ٦٧١)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون استبول ١٩٤١، ص ٨٣٥، وكتاب عمر رضا، معجم المؤلفين ١٨٩/٥.

(٦) - ابن خلدون، التعريف، عبد الجبار عبد الرحمن، ذخائر التراث العربي الإسلامي ١٠٨، ويدوي، عبد الرحمن، مؤلفات ابن خلدون ، ط٢، تونس ١٩٧٩، ص ٢٨٢.

تاسعاً: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: وهو كتاب عظيم النفع والفائدة^(١) وهذا الكتاب عبارة عن مقدمة وثلاث كتب كالتالي:-

المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والألماع بمقابل المؤرخين تضمنت معلومات مهمة عن حضارة العرب^(٢).

الكتاب الأول: في العمran والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وضمنه عللاً وأسباباً.

الكتاب الثاني: اختص بأخبار العرب وأجيالهم ودولهم بدءاً بالخلق وانتهاءً بعهد ابن خلدون. وفيه الماء لبعض من عاصرهم من الأمم والمشاهير ودولهم.

الكتاب الثالث: وأختص في أخبار البربر^(٣).

وكما هو متعارف عليه فإنه يتالف من سبعة مجلدات يعرف الأول منها بالمقدمة التي يفضلها أخذت مسائل البحث الاقتصادي والتحليل الاجتماعي والتطبيق التاريخي تشفل جانباً مهماً في التفكير السياسي^(٤). والمقدمة تاريخية فلسفية لم يسبق فيها ابن خلدون أحد حتى من علماء اليونان والرومان وغيرهم^(٥) ولم نعرف موزرعاً اشتهر بمقدمة كتابه

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢٧٨.

(٢) العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس من ٣٧١. وابن خلدون المقدمة، ص ٦.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٦. وليان، سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مصر ١٩٢٨، ١، ٩٦١، ٩٦٢ - ٩٧.

(٤) ميكافيلي، الأمين تعقيب هارق سعد، ط٢، بغداد ١٩٨٨، ص ٢٤١.

(٥) شيخاني، سمير مع الخالدين، بيروت ١٩٥٩، ص ٢٥٦.

أكثر من الكتاب نفسه سوى ابن خلدون إذ اشتهر بصاحب المقدمة^(١) وهو مؤلف فوائد لا تحصى ولا سيما وانه يعد من أنفس المراجع لتاريخ البرير ومعرفة أحوال المغرب في العصور الوسطى^(٢) وقد أبان ابن خلدون في المقدمة ومجلدات الكتاب الكاملة (العبر) عن براعة وفن كبارين ولكن تبقى المقدمة هي حجر الزاوية لتاريخ ابن خلدون وكان ابن خلدون حاله حال كل من أشتغل بالتفكير الفلسفى في الإسلام كان يحاولان يستند إلى القرآن الكريم لأن حقيقة القرآن شففت كل نواحي الفكر العربي الإسلامي لهذا استفاد ابن خلدون من هذا المنهج^(٣).

وفاته:

أجمعـت المصادر القديمة والحديثـة على أن وفـاة المؤـرخ والفـيلسوف عبد الرحمن ابن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون أبو زيد ولـي الدين الحضرمي الأشبيلي التونسي القاهـري المالـكي المعـروف بـابن خـلدون كانت فجـأة بيـوم الأربعـاء لأربعـاء بـقين من رـمضـان عـام ثـمانـمـائـة وـثمانـيـة للـهـجرـة. الموافق لـعام الـأـلـف وأـرـبعـمـائـة وـستـة للمـيـلـاد. كانت وفـاته في القـاهـرة وـدـفـنـ بـمقـابـر الصـوفـيـة خـارـج بـاب النـصـر^(٤). عن عمر ناهـز السـبعـين عـاما

(١). عـوـيس إـبرـاهـيم، ابن خـلـدون مـفـكـراً اقـتصـادـياً، بـحـث، مجلـة العـربـي العـدـد / ٢٤٢، يـونـيو ١٩٨٧، من ١٨.

(٢). الفـاخـوري، رـضا، تاريخـ الكـتابـ العـربـي، بـيـرـوت (بـ. تـ)، صـ ٨٧٨.

(٣). ابن حـجر العـسـقلـانـي، أـنبـاء الفـمـر / ٥، ٢٢٢، والتـشارـ عليـ سـاميـ، نـشـأـةـ الفـكـرـ الـفـلـسـفـيـ فيـ إـلـاسـلـامـ، طـ ٤، مصرـ ١٩٦٦، ٦/١.

(٤). الصـيـرـيفـ عـلـيـ بـنـ دـاـودـ الخطـيبـ الجـوـهـريـ (تـ ٨٥٢ هـ)، نـزـهـةـ النـفـوسـ وـالـأـبـدـانـ فيـ تـوـارـيـخـ الزـمـانـ، تـحـقـيقـ حـسـنـ جـبـشـيـ، مصرـ ١٩٧١، ٢٢١/٢، وـابـنـ حـجرـ العـسـقلـانـيـ، أـنبـاءـ الفـمـرـ / ٥، ٢٢٢، وـالـسـخـاوـيـ.

قضى فيها حياةً زاخرةً بالنشاطات الفكرية والعلمية والسياسية تاركاً
تراثاً فكرياً ثرياً.

الضوء اللامع، ١٤٦/٤، والشوكاني، البدر الطالع، ٣٨٨/١ وينظر: - الزركلي، الأعلام، ٢/٣٣٠، وبحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين ٥/١٨٨.

الفصل الثاني

**تعريف التصوف واشتقاقه
ونشأته وتطوره تاريخاً**

المبحث الأول: تعريف التصوف

إن مسألة وضع تعريف شامل وجامع لأحوال التصوف أمر مستبعد بالنسبة للبحث فيه، وذلك مرده إلى أن واضعي التعريفات من رجالات التصوف قد اختلفوا اختلافاً حتى أنا لا نجد ما هو متافق عليه بينهم ولو بشكل قريب من حيث المبنى اللغوي لها.

وإذا ما عدنا للبحث في نشأة تعريف التصوف نجد من الباحثين من يؤكد ذهابنا إليه قال أبو العلا العفيفي: ((وإننا لا نجد تعريفاً للتصوف قبل نهاية القرن الثاني الهجري: أي قبل (المعروف الكرخي ت ٢٠٠ هـ)^(١)) أما مرحلة الزهد السابقة على هذا العهد فقد أكثر رجالها من الكلام عن الدنيا والزهد فيها، وعن النفس ومحاريتها، والمعاصي وضرورة تجنبها والأخرة ونعيهما وعداها، والى غير ذلك مما هو متصل بالجانب العملي من الطريق الصوفي^(٢)). في حين يرى باحث آخر ما يوافق هذا المعنى، الذي صار بمثابة إجماع من قبل الباحثين فيقول ((وعلى الرغم مما يشاهد الصوفية من مواجهات متماثلة ، ويعلنون من حالات تبدو متشابهة، مما يعد جاماً مشتركاً ويقوم دليلاً في رأيهم على صدق التجربة الصوفية وعلاليتها ، فإن المعاناة النفسية، وما تصاحبها من حالات تبدو متشابهة،

(١) هو أبو محفوظ معروف بن فيزوز الكرخي وكان من المشايخ الكبار مجاب الدعوة يتسلق بقبره وهو من موالى علي بن موسى رضي الله عنه مات سنة مائتين وقيل واحدى انظر القشيري في الرسالة القشيرية دار التربية للطباعة ص ١٢، السلمي - ملقيات الصوفية ص.

(٢) - أبو العلا عفيفي . التصوف الثورة الروحية في الإسلام بيروت . دار الشعب (بدون تاريخ) من ٣٦.

مما يعد جامعاً مشتركاً ويقوم دليلاً في رأيهم على صدق التجربة الصوفية وعاليتها، فان هذه المعاناة النفسية، وما تصاحبها من حالات الرؤى والكشف، تبقى ذاتية بكل ما يحتمل المصطلح من معنى مما ينتهي لامحالة الى تبادل في المذاقات ومن ثم الاختلاف في تحديد التعريف فتأتي عبارة كل واحد منهم مختلفة عن الآخر^(١)). ويدورنا سوف نقدم جملة من التعريفات مرتبة زمنياً:

فقد عرفة (المعروف الكرخي ت ٢٠٠ هـ) بقوله:

((التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق))^(٢).

اما رأي سليمان الداراني ت ٢١٥ هـ)^(٣) فيقول:-

((التصوف أن تجري على الصواب في أعمال لا يعلمها إلا الحق وإن يكون دائماً مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو))^(٤).

ويعرفه (السري السقطي ت ٢٥٧ هـ)^(٥) بقوله: ((التصوف اسم لثلاث معانٍ: وهو الذي لا يطفئ نور ورمه، ولا يتكلم بباطل في علم ينقضه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك

(١) - د. عرفان عبد الحميد. دراسات في الفكر العربي الإسلامي. بيروت. دار الجيل طبعة أولى ١٤١٢ هـ. ١٩٩١ م ص/٢٠٥.

(٢) - السهروري - عوارف المعرف - بيروت - لبنان - دار الكتاب العربي ص ٥٣.

(٣) - (هو الإمام الكبير زهد العصر أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد وقيل ابن عطية وقيل ابن عسڪر النفسي الداراني). الشعراوي الطبقات الكبرى ج ١ / الذهبي - سير أعلام التبلاج ١٨٢/١٠ . المسلمين. طبقات الصوفية ٧٥ - ٨٢.

(٤) - هزيد الدين المطار تذكرة الأولياء ج ١/٢٣٢. ينظر التصوف الثورة الروحية في الإسلام.

(٥) - هو أبو الحسن سري بن مقلعن السقطي، خال الجنيد وأستاذهم ومحكماً معروفاً الكرخي كان أوحد زمانه في الروع والأحوال السننية وعلوه في التوحيد. ينظر القشيري في الرسالة القشيرية من ١٧ طبقات الصوفية ص ٤٨.

أستار محارم الله)).^(١) ثم يعرفه (أبو حفص الحداد ٢٦٥هـ).^(٢)

((التصوف كله أدب: لكل وقت أدب: ولكل مقام أدب: ولكل حال أدب. فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال. ومن ضياع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب. ومردود من حيث القبول)).^(٣)

ثم نجد من يعرفه بصيغة أخرى وهو (سمنون المحب ت ٢٩٧هـ)^(٤) عندما سُأله عن التصوف ((الا تملك شيئاً ولا يملكك شيء)).^(٥) في حين غيره وهو (عمرو بن عثمان المكي ت ٢٩٧هـ)^(٦) عندما سُئل عن التصوف بقوله ((أن يكون العبد في كل وقت مشغولاً بما هو أولى به في الوقت)).^(٧) ثم يورد (أبو الحسين النوري ت ٢٩٥هـ).^(٨) عدة تعاريف منها:

((التصوف ترك كل حظ للنفس)) وله أيضاً:

((التصوف الحرية والبذل، وترك التكلفة والمسخاء)) وله أيضاً ((التصوف ترك حظ النفس جملة ليكون الحق نصيبها))

(١) . القشيري الرسالة القشيرية دار الكتاب اللبناني من ١٠ / .

(٢) . هو أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد من قرية يقال لها كورد أباد على مدينة نيسابور أحد الأئمة والسدادة الصوفية مات سنة نصف وستين ومائتين ينظر لرسالة القشيرية من ٢٧ / . السلمي طبقات الصوفية من ١١٥ .

(٣) . البحوليري كشف المحجوب ترجمة مفتى حكيم غلام معين الدين التعيمي لاہور مطبعة الوفاق من ٤٢ .

(٤) . هو سمنون بن حمزة وكنيته أبو الحسن يقال أبو القاسم صاحب السري والقلانسي ت ٢٩٧ . ينظر الرسالة القشيرية من ٣٦ السلمي طبقات الصوفية ص ١٢٥ .

(٥) . القشيري الرسالة القشيرية ص ١٢٧ .

(٦) . هو أبو عبد الله عمر بن عثمان المكي شيخ القوم وإمام الطائف في الأصول والطريقة ينظر الرسالة القشيرية من ٣٦ السلمي طبقات الصوفية ص ٢٠٠ .

(٧) . القشيري الرسالة القشيرية ص ١٢٧ .

(٨) . هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري بغدادي المولد والمنشا . بفوي الأصل (ت ٢٩٥هـ) . ينظر حلبة الأولياء ١٠ / ٢٤٩ . سير أعلام النبلاء في الإسلام من ٤٤ - ٤٣ .

ويقول أيضاً:

((ليس التصوف رسمأً وعلمأً ولكنه خلق. لأنه لو كان رسمأً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علمأً لحصل التعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله)).^(١)

وأورد (أبو القاسم الجنيد ت ٢٩٧هـ)^(٢) عدة تعاريف أهمها:-

التصوف ((هو أن يميتك عنك، ويحييتك به))^(٣)

أو هو: ((نعت أقيم فيه العبد))^(٤)

وأيضاً: ((أن تكون مع الله بلا علاقة))^(٥)

كذلك قال: ((إن التصوف عنوة لا صلح فيها))^(٦)

وقال أيضاً: ((التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع سماع، وعمل مع إتباع))^(٧) وعنـه أيضـاً حينـما سـئـلـ عنـ التـصـوفـ قـالـ: ((تمـسـكـ بـظـاهـرـهـ ولاـ تـسـأـلـ عـنـ حـقـيقـتـهـ وإـلاـ أـفـسـدـتـهـ))^(٨).

ونلاحظ من يعرفه (أي التصوف) بأكثـرـ من تعـريفـ وـمـنـهـ مـنـ يـكـتفـ بـذـكـرـ تـعـرـيفـ وـاحـدـ وـلـكـنـهاـ وإنـ اخـتـلـفـ فـإـنـهاـ مـتـقـنةـ عـلـىـ أـمـرـيـنـ هـمـاـ:

(١) . فريد الدين المطار، تذكرة الأولياء ج ١ / ٢٦٥ - ٢٦٥ . المجلوبـيـ كـشـفـ المـحـجـوبـ منـ ٣٦ - ٣٧ . يـنـظـرـ أبوـ العـلـاـ عـفـيفـ التـصـوفـ الثـورـةـ الـروـحـيـةـ فـيـ الإـسـلـامـ صـ ٤٢ - ٤٤ .

(٢) . هو أبو القاسم الجنيد من محمد سيد هذه الطائفة وأمامهم، أصله من نهاوند وموالده بالعراق، كان فقيهاً على مذهب أبي ثور ٢٩٧هـ . القشيري الرسالة القشيرية من ٢٤ السلمي طبقات الصوفية من ١٠٥.

(٣) . السهروريـ عـوارـفـ الـعـارـفـ بـبـيـرـوـتـ . لـبنـانـ . دـارـ الـكتـابـ الـعـربـيـ منـ ٥٦ .

(٤) . المجلوبـيـ كـشـفـ المـحـجـوبـ منـ ٣٦ .

(٥) . القشيري الرسالة القشيرية من ١٢٧ .

(٦) . المصدر السابق نفس الصفحة .

(٧) . المصدر السابق نفس الصفحة .

(٨) . فريد الدين المطار تذكرة الأولياء ج ١ من ٣٦٥ نقلـاً عنـ أبوـ العـلـاـ عـفـيفـ التـصـوفـ الثـورـةـ الـروـحـيـةـ فـيـ الإـسـلـامـ صـ ٤٢ - ٤٤ .

التحلّق بالشريعة، والتعلق بالله تعالى، وهذا إمام آخر وهو (أبو محمد رويم ت ٣٠٣ هـ) ^(١) يعرّفه بأنه :-

((استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد) ^(٢) وله أيضاً:-.

((التصوف مبني على ثلاثة خصال: - التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار) ^(٣).

وعرّفه أبو محمد (الجريري ت ٣١١ هـ) ^(٤) بقوله:

((التصوف الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني) ^(٥)).

وعرّفه علي بن بندار (النيسابوري ت ٣٥٣ هـ) ^(٦) بقوله:-.

((التصوف إسقاط رؤية الخلق ظاهراً وباطناً) ^(٧)).

ويعرّفه حجة الإسلام الإمام (الغزالى ت ٥٠٥ هـ) ^(٨). فيقول:-

((هو قطع عقبات النفس، والتزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها

(١) هو أبو محمد رؤيم بن أحمد البغدادي من أجلة المشايخ، كان مقرئاً فقيهاً على مذهب داود (ت ٢٠٣ هـ) له ترجمة في الرسالة القشيرية ص ٢٤، أبو نعيم حلية الأولياء الحبة ٢٩٦/١٠، أبناء المنتظم ١٣٦/٦، ابن الجوزي صفة الصوة ٤٤٢/٢.

(٢) القشيري الرسالة القشيرية ص ١٢٧.

(٣) السهروردي عوارف المعرف من ٥٣.

(٤) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري، كان عالماً بعلوم الطائفة كبير الحال (ت ٣١١)، القشيري الرسالة القشيرية من ٣٩ العلمي طبقات الصوفية من ٢٥٦.

(٥) السهروردي عوارف المعرف من ٥٥.

(٦) هو أبو الحسن بندار بن الحسين عالماً بالأصول كبير الحال (ت ٣٥٣ هـ) بارحوان، القشيري الرسالة القشيرية من ٤٩ العلمي طبقات الصوفية من ٤٦٧.

(٧) الشعراوي، الطبقات الكبرى ١٠٦/١.

(٨) هو أبو حامد محمد بن محمد الطومي الغزالى الإمام البحر حجة الإسلام زين الدين أعيجوبة الزمان صاحب الذكاء المفرط، والتصانيف العديدة ينظر ابن الجوزي المنتظم ١٦٨/٩ وأيضاً النهبي، البداية والنهاية ١٧٣/٢، ابن كثير سير أعلام النبلاء ٢٢٢/١٩.

الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليلته بذكر الله^(١).

ويعرفه ابن عجيبة بأنه ((علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليلتها بأنواع الفصال، وأوله علم ووسطه علم وآخره موهبة))^(٢).

ويعرفه (ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ) :

((رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال البطانة والظاهرة بالوقوف عند حدوده مقدماً الاهتمام بأفعال القلوب ومراقباً خفاياها حريراً على النجاة))^(٣). وكذلك يعرفه السيد (الجرجاني ت ٨١٦ هـ)^(٤) بأنه :

((الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال))^(٥).

وقد عرف بتعريفات أخرى كثيرة لو ذكرناها فإنها لا حصر لها ولا عدد، وتدل التعريفات والأقوال السابقة على أنها لصوفية لم يمكنهم وضع تعريف جامع يدل على التصوف وما ذاك إلا لأن مشاريهم وأحوالهم متباينة، وإن كلاً منهم نطق عن حاله وذوقه ومشريبه، والذي نرجحه من

(١) - الغزالى - المندى من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود، طبعة دار الكتب الحديثة، ص ١٢١.

(٢) - أحمد بن عجيبة الحسيني، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، (ب، ت)، ص ٤.

(٣) - ابن خلدون شفاء السائل لتهذيب المسائل، تحقيق أغناطيوس، بيروت المطبعة الكاثوليكية ص ٧٤.

(٤) - هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني الحسيني الحنفي، ويعرف بالسيد الشريف، عالم كبير محقق ومدقق، ينظر عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، ج ٧، ص ٢١٦. الزركلي، الإعلام ج ٦، من ٢٨٨.

(٥) - الجرجاني . التعريفات، بيروت طبعة عالم الكتب من ٨٧-٨٨.

هذه التعريفات هو التعريف الذي أورده العلامة الكبير والمؤرخ الأصيل (ابن خلدون) ولا نقول هذا القول إلا لما اشتمل عليه من معانٍ عظيمة شملت أغلب الجوانب المشتركة في جميع التعريفات وهي حسن الأدب الباطن ومراعاة الشرع الظاهر وهذا أكثر ما أكد عليه رجالات التصوف في مختلف العصور فابن خلدون يحدد إن الاختلاف ليس زمنياً وليس لاختلاف الزمن تأثير في تلك الخلجان القلبية التي تموج في قلب الصوفي صاحب التجربة.

المبحث الثاني: اشتقاقه

وكمما اختلف الباحثون في الوصول إلى التعريف جامع للتصوف، كذلك اختلفوا في اشتقاق هذا الاسم الذي نسب إليه هؤلاء القوم. فذهب بعضهم إلى أن التصوف مشتق من الصوف وبعضهم من الصفة وأخرون من الصف الأول أو نسبة إلى صوفة أو أنه مشتق من كلمة سوفيا اليونانية أو غير ذلك وستنعرض لهذه الاشتراكات بشيء من التفصيل.

أولاً: ذهب بعضهم إلى أن التصوف مشتق من ليس الصوف: قال صاحب اللمع أنه: ((نسبتهم إلى ظاهر اللبسة لأن ليس الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام، وشعار الأولياء والأصفياء وتكرر في ذلك الروايات والأخبار. فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة وكان ذلك اسماً مجملأ عاماً مخبراً عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة لا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة. فقال عز وجل: (إذا قال الحواريون)^(١) وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين. فكذلك الصوفية نسبوا إلى ظاهر اللباس لأن ليس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصديقين، وشعار السالكين المتتسكين)).^(٢).

(١) - سيرة المائدة آية ١١٢. نص تفسير الرازى الكبير. دار الكتب العلمية طهران ٨/٦٣.

(٢) - أبو نصر السراج اللمع مصر طبعة دار الكتب الحديثة من ٤١.

ويؤيد هذا الرأي ما ورد من الآثار في لبس الصوف منها: .

((إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يركب الحمار ويلبس الصوف، ويعقل الشاة ويأتي مراعاة للضيف))^(١).

وعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: ((يا بني لورأيتنا ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم لحسبت أن ريحنا الضآن إنما لباسنا الصوف وطعامنا الأسودان التمر والماء))^(٢).

وعن الحسن البصري أنه قال: ((والله لقد أدركت سبعين بدرياً وكان لباسهم الصوف))^(٣).

ثانياً: إنه مشتقاً من الصفة.

قال صاحب عوارف المعرف: ((قيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قال الله تعالى فيهم (للقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض))^(٤).

ويضيف إن هذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتراق اللغوي، ولكنه صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكِل حاليم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبِين لله وفي الله ك أصحاب الصفة))^(٥).

ثالثاً: قيل إنه مشتق من الصف الأول.

(١). أخرجه حاكم في مستركه، وقال عنه: (هذا الحديث صحيح على شرط الشيفين) ولم يخرجاه وإنما ذكرته في هذه الموضع لأن هذه الخلال من الإيمان المسترك بيروت، دار الكتاب العربي ٦١/١.

(٢). رواه أبو داود باختصار، والطبراني في الأوسط وروجاه رجال الصحيح ينظر ابن حجر الهيثمي مجمع الزوائد، ٢٢٥/١٠.

(٣). أبو نعيم الأصفهاني حلية الأولياء ١٢٤/٢.

(٤). سورة البقرة آية ٢٧٢.

(٥). السهروري عوارف المعرف من ٦٥. انظر أيضاً الزمخشري أساس البلاغة من ٥٤٦.

ويستعرض هذا الرأي (السهروردي)^(١) فيقول: ((قيل سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقفوهم بين يديه)).^(٢).

وهذا الاشتقاء أو التسمية أو النسبة لا تصح في اللغة. ولا في النقل. وقد نقلها الشيخ بصيغة التمريض "قيل".
رابعاً: إنه من الصفاء.

ثم قيل إنه مشتق من الصفاء، لصفاء قلوب رجال التصوف في معاملتهم مع الله، جاء في كتاب الفيض الوارد(.. والذى يميل إليه كثير من السادة ما يفهم من هذين البيتين:-

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدماً وظنوه مشتقاً من الصوفي ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافية فصوفية حتى سمي الصوفي^(٣).

وعليه فوجه تسمية السالك بذلك صفاء قلبه، وطهارة باطنـه وظاهرـه عن مخالفة ربه.

خامساً: إن التصوف يرجع نسبة إلى (صوفه)^(٤).

قال (ابن الجوزي)^(٥): ((ثم نشا أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقاً

(١) - أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عميرة، واسمه عبد الله البكري الملقب بشهاب الدين السهروردي ت ٦٣٥ ببغداد ودفن بالوردية. ينظر ابن خلkan. وفيات الأعيان ٤٤٧/٢ - ٤٤٨.

(٢) - السهروردي عوارف المعارف ص ٦٥.

(٣) - شهاب الدين الألوسي. الفيض الوارد على مرثية موالنا خالد ص ١٠١ - ١٠٠.

(٤) - قاتل البيتين هو أبو الفتح البستي. ينظر الغزالى والتصوف الإسلامي. احمد الشرياطي طبعة الهلال ص ١٤٨.

تلخلقوا بها، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفة واسمها الفووث بن مربن آد بن طابخة فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى فتسموا بالصوفية^(١). وهذا قد رد من وجوه:-

- ١ - إن الفترة بين صوفة وظهور التسمية فترة بعيدة.
 - ٢ - (إن العربي في الجاهلية قليل الاعتراف بالدين)^(٢).
 - ٣ - ((إن الوثنية العربية قبل الإسلام كانت وثنية متفسحة متهرمة لم تتمكن من الاستيلاء على مشاعر العربي ووجوداته وفكره وعواطفه يؤيد هذا الشواهد القوية في الشعر العربي الجاهلي وتاريخه))^(٤).
- سادساً: زعم بعضهم أن نسبة التصوف إلى كلمة (سوهيا) ومعناها عند الصينيين ((الحكيم العلوي وقد انفرد بهذا الرأي من العلماء العرب البيروني))^(٥).

وهذا الرأي مردود من عدة وجوه:-

- ١ - إن كلمة التصوف والصوفية ظهرت قبل انتشار الفلسفة اليونانية بين العرب.
- ٢ - إن الكلمة التي أصلها أعمامي تبقى عند العرب منصوصاً عليها كحال كثير من الكلمات الأعمامية.

(١) - وهو أبو حي من مصر وهو الفووث بن مربن آد طابخة كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون الناس في الجاهلية. ينظر الفيروز القاموس المحيط بيروت دار الجبل ٤. ١٦٩.

(٢) - ابن الجوزي ثلبيس إبليس طبعة منشورات مكتبة التحرير ص ١٦١ - ١٦٢.

(٣) - نيكلسون في التصوف الإسلامي ترجمة نور الدين شريبي مكتبة الخانجي ص ٤٦.

(٤) - عرفان عبد الحميد. نشأة الفلسفة العربية وتطورها طبعة المكتب الإسلامي ص ١٠٦ - ١٠٥.

(٥) - أبو العلا عفيفي التصوف الثورة الروحية في الإسلام بيروت دار الشعب ص ٣٧.

٢ - سوفيا اليونانية تعني الطلب والفلسفة وأين هذا من الصفاء الروحي الذي دعا إليه رجال التصوف.

٤ - إن استعمال كلمة تصوف وصوفي لا يؤيد هذا الاشتقاء مطلقاً إذ لا علة لقلب السين صاداً فكلمة فلسفه باقية على سينها بعد استعمال العرب لها.

أما ابن خلدون فيقرر في المقدمة رأيه الذي يوافق فيه أبو نصر السراج فيقول: ((إنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الرزد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بما خذ مدركه لهم)).^(١)

وفي شفاء السائل فإن ابن خلدون يخالف جميع هذه الآراء ويثبت رأي الإمام القشيري في أن هذا الاسم صفة للقوم فهو كاللقب بالنسبة لهم. فيقول:

((وقد تكفل بعضهم فيه الاشتقاء، ولم يساعدهم القياس، فقيل من لبس الصوف والقوم لم يختصوا فيه بلباس دون لباس، وإنما فعل ذلك بعض من تشبيه بهم وتخيل من لباسهم الصوف في بعض الأوقات تقللاً وزهداً: إنه شعار لهم، فأعجب بهذا الظن، حتى حمله على الاشتقاء منه، وما لبس الصوف من لبسه منهم إلا تقللاً وزهداً... إلى قوله ((هي لقب وضع لهذه الطائفة عاماً يتميزون به ثم تصرفوا في ذلك اللقب بالاشتقاء منه فقيل متتصوف - وصوفي والطريقة تصوف، والجماعة متتصوفون

(١) - ابن خلدون المقدمة. القاهرة طبعة الخشاب سنة ١٣٢٢ هـ ص ٢٥٤.

وصوفيون^(١)) قال القشيري^(٢): ((وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس والاشتقاق الأظاهر فيه أنه كاللقب))^(٣).

(١) - ابن خلدون شفاء المسائل تحقيق أغناطيون من ٧٨ - ٧٩.

(٢) - عبد الكريم بن هوانن بن عبد الملك بن صلحة النيسابوري (أبو القاسم القشيري) ٤٦٥ - ٣٧٦ هـ ينظر ابن كثير البداية والنهاية ٦٠٧ / ١٢ ابن خلkan وفيات الأعيان ٣١ / ٢.

(٣) - القشيري الرسالة القشيرية دار التربية للطباعة والنشر ص ٢١٧.

المبحث الثالث: نشأته

نشأ التصوف الإسلامي من عوامل إسلامية بحثة تمثلت في زهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم وليس من إنكار أن هناك عوامل خارجية أثرت في التصوف الإسلامي ولكنها لم تكن هي الموجدة الخالقة له.

يقول الدكتور محمد إقبال: ((ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهرة في بيئه ما إلى عوامل خارجة عنها فتهمل بذلك العوامل الداخلية. فإنه لا فكرة من الأفكار ذات قيمة يمكن لها سلطان على نفوس الناس. إلا إذا كانت تمت إليها بصلة (أي العوامل الداخلية) فإذا جاء عامل خارجي أيقظها، ولكنه لا يخلقها خلقاً. وعندما بحث المستشركون في أصل التصوف، ذهبوا إلى أن مرده إلى هذا العامل الخارجي أو ذلك ونسوا أن آية ظاهرة عقلية، أو تطور عقلي في أمة، لا يكون لها معنى، ولا يفهمان إلا في ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التي عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة))^(١).

((لا داعي إذن لأن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المستشرقيين من أن أصل التصوف في الإسلام يرجع إلى هذا العامل الخارجي أو ذاك: إذن من الخطأ البين أن نقول أن كذا وحده هو العلة في وجود كذا الآخر. ولا سيما إذا كانت العلل والمعلولات من الأمور الواقعة في الميادين العقلية والروحية والاجتماعية لأن الظواهر العقلية والروحية والاجتماعية لا تخضع لقوانين العلة البسيطة التي تخضع لها الظواهر الطبيعية))^(٢).

(١) - محمد إقبال تطور الفلسفة الميتافيزيقية في فارس من ٩٦ / .

(٢) - أبو العلا عفيفي التصوف لثورة الروحية في الإسلام من ٥٤ . ٥٥

ولقد ظهرت عدة نظريات حاولت إرجاع التصوف الإسلامي إلى أصول خارجة عن الإسلام وهناك أيضاً النظرية الإسلامية وسنعرض لكل منها:

النظرية الأولى: وهي القائلة بأن التصوف رد فعل للعقل الاري ضد دين سامي فرض عليه فرضاً لهذه النظرية صورتان:-

١ - الصورة الهندية: والقائلون بها يرون أوجه الشبه بين بعض النظريات الصوفية في أرقى أشكالها وبين تعاليم (الفيد)^(١) ولكن شبه ظاهري لا حقيقي لأن الفناء الصوفي الإسلامي هو أخص مظاهر التصوف . يختلف عن ((النيرفانا))^(٢) الهندية وهذه النظرية ليس لها دليل تاريخي يؤيدتها.

٢ - الصورة الفارسية: التي يدعى أصحابها أن التصوف الإسلامي نتاج فارسي في نشأته وتطوره. ولكنها أيضاً دعوى لا تقوم على أساس من التاريخ^(٣).

النظرية الثانية: وهي النظرية الأفلاطونية الحديثة: وهذه النظرية قال بها (مركس) في كتابه ((التاريخ العام للتتصوف ومعالله)) والأستاذ (براون) في كتابه ((التاريخ الأدبي للفرس) (نيكلسون) في كتابه (صوفية الإسلام) وهذا الأخير قد دافع عن هذه النظرية لما توصل إليه في

(١) - وهو الكتاب المقدس للهندوس وهذا الكتاب يقسم إلى أربعة أقسام مقدسة ينظر: أحمد شلبي مقارنة الأديان ١٠٤ - ١٠٢ / ٤

(٢) - وهي مرحلة انتقال الروح من الجسد واتحادها بالإله يراهما. أو هي مرحلة الانتقام والخلاص. ينظر سليمان مظہر قصة الديانات مطبعة الوطن العربي ص ٥٦.

(٣) - أبو العلاء عفيفي التصوف الثورة الروحية في الإسلام من ٥٧ - ٦٠ (يتصرف).

بحثه في تصوف ذنون المصري وإن كان لا يمثل التصوف الإسلامي
برمته^(١).

النظرية الثالثة: النظرية الإسلامية: وهي القائلة بأن التصوف تعبير عن الناحية الباطنية في الإسلام. وهذا هو إدعاء الصوفية أنفسهم لأنهم يعتبرون أنفسهم ورثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) - أي ورثة العلم الباطن. فالتصوف بهذا المعنى إدراك باطني لحقائق الشريعة المعبّر عنها بلسان الظاهر^(٢).

لقد أخفقت النظريات غير النظرية الإسلامية في رد نشأة التصوف الإسلامي إلى أصوله والذي نرجحه ونميل إليه أن التصوف أصوله إسلامية. مستدلين بما يأتي:

١ - قال الإمام القشيري^(٣) رحمه الله: - ((إن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفضالهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا فضيلة لهم فوقها فقيل لهم (الصحابة) ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين. ورأوا ذلك أشرف سمة. ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن بهم شدة عناء بأمر الدين الرهاد والعباد ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع

(١) - المرجع نفسه.

(٢) - أبو العلا عقيفي التصوف الثورة الروحية في الإسلام من ٦٠ بتصريف.

(٣) - هو عبد الكريم بن هوان بن عبد الملك بن طلحة (أبو القاسم القشيري) من أجلة مشايخ التصوف ولهم تصانيف في التصوف. ٣٧٦ - ٤٦٥ هـ ينظر ابن كثير البداية والنهاية ١٢/١٠٧، والكتبي هوات الوفيات ٢/٢١٠.

الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واستشهر
هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة^(١).

٢ - ذكر ابن تيمية^(٢) رحمة الله: ((إن الأمور الصوفية التي فيها زيادة
في العبادة والأحوال خرجت من البصرة فافتقر الناس في أمر هؤلاء الذين
زادوا في أحوال الزهد والورع والعبادة على ما عرف من حال الصحابة.
فقوم يذمونهم وينتقضونهم. وقوم يجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق
وأعلاها. والتحقيق: إنهم مجتهدون في هذه العبادات والأحوال مجتهدون
كما كان جيرانهم من أهل

الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والإمارات ونحو ذلك))^(٣).

٣ - ويقول العلامة ابن خلدون: ((هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة
في الملة وأصله أن طريق هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من
الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهادية وأصلها المعكوف
على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها
والزهد فيما يقبل عليه الجمhour من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في
الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف وما فشا الإقبال على
الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص
المقبولون على العبادة باسم الصوفية والتصوفة))^(٤).

(١) - القشيري الرسالة القشيرية بغداد مطبعة منير اويفست ص ١٢.

(٢) - أحمد بن عبد السلام (نقى الدين ابن تيمية) ٦٦١ - ٧٧٨ هـ. انظر البداية والنهاية ١٤ / ١٤.

(٣) - ابن تيمية الصوفية والقراء تعليق محمد رشيد رضا مصر مطبعة المنار المطبعة الثانية ١٣٤٨ .
١٩٢٠ ص ١٢ - ١٧ .

(٤) - ابن خلدون المقدمة بيروت دار إحياء التراث العربي ص ٤٧٦ .

٤ - وروى البخاري في صحيحه قال: ((ذهب علامة إلى الشام فلما دخل المسجد قال: (اللهم يسر لي جليساً صالحًا). فجلس إلى أبي الدرداء، فقال أبو الدرداء، من أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أليس فيكم أو منكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني حذيفة، قلت بلى))^(١).

٥ - قال ابن حجر العسقلاني^(٢) رحمة الله: ((وكان حذيفة قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفاياه من بين الصحابة، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، ويرجعون إليه في العلم الذي خص به، ويسألونه عن المنافقين وهل بقي منهم ومن ذكر الله تعالى وأخبر عنهم أحد، فكان يخبر بأعدادهم ولا يذكر أسماءهم، وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئاً من النفاق فبرأ عنه، ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق فيخبره من ذلك بما يصلح مما أذن له فيه ويستغفي مما لا يجوز له أن يخبر به فيعذر في ذلك وكان عمر (رضي الله عنه) إذا دعي إلى جازة ليصلّي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلّى الله عليه وإن لم يحضر حذيفة لم يصلّى عليها وكان حذيفة يسمى صاحب السر))^(٣).

(١) . البخاري صحيح البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) باب مناقب عمار وحذيفة .٢٢٥.

(٢) . هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني (أبو الفضل شهاب الدين بن حجر) ٧٧٣ هـ من أئمة العلم أصله من عسقلان بفلسطين ولد في القاهرة، ينظر الضوء اللامع ٢/٣٦، الإعلام ١/٧٨، ٨٥٢ هـ.

(٣) . ابن حجر العسقلاني الأصابة في تمييز الصحابة مصر مكتبة الكليات الأزهرية ٢/٢٢٣.

وقال أبو طالب المكي^(١): ((وقد كان الحسن البصري أحد المذكورين وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النساء والعباد في بيته مثل مالك بن ديار، وثابت اللبناني، وأبيوب السجستاني، ومحمد بن واسع، وفرقد السبعي، وعبد الواحد بن زيد، فيقول: هاتوا انشرروا والنور فيتكلم عليهم من هذا العلم من علم اليقين والقدرة وفي خواص القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس))^(٢).

وبعد استعراض هذه النصوص يتبين أن النظرية الإسلامية هي الأساس في نشأة التصوف الإسلامي وأول طبقات الصوفية هم من الصحابة ومن بين التابعين الأوائل، ولقد اعتمد الصوفية على القرآن الكريم في بناء قواعدهم في الرياضة والجهاد، وعلى هدي الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) فالشرعية في نظرهم لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر والحقيقة لإصلاح السرائر والكل مستمد من القرآن وبناءً عليه فإن التصوف قد نشأ من أصول أسلامية بحتة وهي المصادر التشريعية الأولى في الإسلام ألا وهي الكتاب والسنة ويويد ما ذهبنا إليه في ذلك عدد كبير من الباحثين)^(٣).

(١) - هو محمد بن علي بن عطية الحراثي (أبو طالب المكي) أمام زاهد عارف، شيخ الصوفية له تأليف ونسك وتعبد، ينظر ابن الجوزي المنتظم ١٨٩/٧، الذهبي سير أعلام النبلاء ٥٣٦/١٦.

(٢) - أبو طالب المكي قوت القلوب دار الفكر ١٤٩/١.

(٣) - انظر د. محمد مصطفى حلمي الحياة الروحية في الإسلام وأحمد عياد توفيق في التصوف الإسلامي ومدارسه وطبعاته وأثره القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٠ - ٢١.

المبحث الرابع: تطوره

وكلما تطور الفقه الإسلامي إلى مدارس فقهية وتطور غيره من العلوم اللغوية والطبيعية وغيرها فإن التصوف الإسلامي أيضاً قد جرت عليه هذه السنة الكونية فلقد تطور من حيث كونه سلوكاً وفكراً. لقد نشأ التصوف نشأة بسيطة ثم تطور إلى مدارس صوفية لكل منها ذوقها الخاص في التربية والسلوك ظهرت عدة مدارس فأمام أقسامها من حيث السلوك فهي كالتالي :-

أولاً: مدرسة الزهد، ويتزعمها الحسن البصري^(١) (ت ١١٠ هـ)

وهي الأساس الذي قام عليه التصوف في جميع أدواره. وإن أوضاع الميزات العامة لهذه المدرسة، العبادة، والنفسك، والزهد، والتشفف، وأتباع السلف الصالح، والمحبة والإخلاص، والمجاهدة، والتمسك بأحكام الشريعة، والانقطاع إلى الله والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة على حد الكتاب والسنة والفقه والأصول ويغلب على أفراد هذه المدرسة تسميتهم بالنساك أو العباد أو البكائين^(٢).

ثانياً: مدرسة الكشف ويتزعمها الإمام أبو حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ). وتقوم على أساس اعتبار المنطق العقلي لا يكفي وحده في تحصيل

(١) - هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ٢١ - ١١٠ هـ رأى عدد كبير من الصحابة. ينظر ابن الجوزي صفة المنفعة ٢٣٣/٢ ط دار الوعي الذهبي. سير أعلام النبلاء ٦٥/٤ . ٧٣.

(٢) - احمد توفيق عياد التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثاره من ٢٠ - ٢١.

المعرفة وإدراك حقائق الموجودات. وقد استطاع الفزالي بقدرة فائقة أن يجعل من جهاده في إحياء علوم الدين صورة مثالية للتصوف السنّي في الاستطاعة أن نقول أنه قد صوّف إسلام عصره، وأحياء في صورة رائعة تعد بحق امتداداً لعصر النبوة والصحابة^(١).

ثالثاً: مدرسة ابن عربي: ويتزعمها الشيخ الأكبر محى الدين بن عربي (ت ٦٢٨ هـ) وتقوم هذه المدرسة على نفس الأساس الذي قامت عليه مدرسة الكشف بالإضافة إلى أحوال أخرى من (الصعق)^(٢) والوجود^(٣) وغيرهما من الأحوال التي أصبحت تميز هذه المدرسة عن غيرها ومن أبرز شخصيات هذه المدرسة الشيخ محى الدين بن عربي و(ابن الفارض)^(٤) وغيرهما ويعتبر كتاب الفتوحات المكية لابن عربي والتائبة الكبرى في السلوك لابن الفارض من أروع مؤلفات هذه المدرسة وقد امتازت أيضاً هذه المدرسة بغموض المعاني واللفظ الإشاري فلا يفهمها إلا من تذوق هذه الأحوال السنّية.

هذه هي صورة التصوف في مراحله التاريخية ومن حيث طريقة السلوك أما من حيث الوجود المكاني فيكون التقسيم كالتالي:-

أولاً: مدرسة المدينة المنورة: وقد ظهر فيها الزهد الأول الذي استمد مادته من القرآن الكريم والحديث مباشرةً، فكان زهد النبي (صلى الله

(١). أحمد توفيق عبد التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبعاته وأثاره من ٢٢ - ٢٩.

(٢). محمد بن محبي بن محمد بن أحمد، الطائي، الخاتمي المرسي (محى أبو بكر ابن العربي ٥٦٠ - ٦٢٠ هـ) المولود بمرسيه بالأندلس، نزيل دمشق. طبقات الأولياء تحقيق نور شربية ص ٣٦٨.

(٣). هو الفنان في الحق عند الذاتي الوارد بسبوحاً يحترق ما للسوى. الجرجاني، التعريفات من ٨٩.

(٤). هو ما يصادف القلب ويرد عليه فلا تكلف وتصنع وقيل هو بروق تلمع ثم تخمد سريعاً. الجرجاني التعريفات من ١٦٩.

عليه وسلم) وصحابته المثال الذي احتذاه الزهاد من المسلمين. ومن أشهر زهاد هذه المدرسة، أبو ذر الغفارى وحنيفة بن اليمان الذى كان أول من تكلم في القلوب وأفاتها. وسلمان الفارسي. وعبيدة وعبد الله بن مسعود. والبراء بن حالك ومن جيل التابعين في المدينة سعيد بن المسيب^(١).

ثانياً: مدرسة البصرة

يقول ابن تيمية: ((كان صوفية البصرة يبالغون في الزهد والعبادات والخوف من الله. وكانوا يمتازون بهذا عن بقية المدن الأخرى وصار هذا مضرياً للمثل بقولهم: فقه كوفي وزهد بصري))^(٢). وكان إمامهم في هذا العلم الحسن البصري. ((لقد كان الحسن البصري)) (رضي الله عنه) أول من نهج سبيل هذا العلم وفتى الألسنة به ونطق بمعاينه وأظهر أنواره وكشف به قناعه كان يتكلم بكلام لم يسمعوه من أحد من أخوانه. فقيل له: يا أبا سعيد

إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك
فمن أخذت هذا؟ قال من حنيفة بن اليمان))^(٣).

وذكر لنا أبو طالب المكي أن للحسن البصري مجالس ذكر يخلو فيها مع أصحابه وكان من أبرزهم (مالك بن دينار)^(٤) وأيوب

(١) - سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المغزومي (أبو محمد، عالم المدينة، وسيد التابعين ١٢ - ٩٤). ينظر ابن سعد طبقات ابن سعد ٥/١١٩. ابن كثير البداية والنهاية ٩٩/٩. الذهبي سير أعلام النبلاء ٤/٢١٧.

(٢) - ابن تيمية نقلأً عن د. عرهان عبد الحميد، دراسات في الفكر العربي الإسلامي ص ٢٢٢.

(٣) - صحيح البخاري كتب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مناقب عمار وحنيفة (رضي الله عنهما) ٥/٢٢٢.

السختياني)^(٣) وكذلك ثابت البناني^(٤) وغيرهم فيقولون: هاتوا انشروا النور فيتكلم عليهم من هذا العلم من علم اليقين والقدرة وفي خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس^(٥).

ثالثاً: مدرسة الكوفة

وكان أبرز أعيان هذه المدرسة (سعید بن جبیر)^(٦) (رضي الله عنه) الذي ذكر أنه ((كان يبكي حتى عمشت عيناه))^(٧) (ابن السماك)^(٨) ((كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ)) لقي جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم مثل هشام ابن عروة والأعمش وغيرهما. وروى عنه احمد بن حنبل وأنظاره، وهو كوفي قدم بغداد في زمن هارون الرشيد فمكث بها مدة ثم رجع إلى الكوفة فمات بها ومن كلامه: . (من جرعته الدنيا حلواتها بميله إليها جرعته الآخرة مراراتها

-
- (١). يكنى بأبي يحيى مالك بن دينار علم من العلماء الأبرار معدود في ثقات التابعين ومن أعيان كتبة المصاحف بـ ١٢١ هـ ينظر ابن الجوزي صفة الصفوة ٢٧٢/١، الذهبي سير اعلام التبلاد ٣٦٢/٥.
 - (٢). يكنى بأبي بكر مولى العترة، وهو ابن تيمية واسمه كيسان، وكان أیوب ثقة ثبتنا في الحديث جاماً عدلاً ورعاً كثیر العلم حجة ٨٦ - ١٢١ هـ قبل الطاعون.
 - (٣). ثابت البناني الإمام القدوة شیخ الإسلام ولد في خلافة معاوية وكان من أئمة العلم والمعلمات ١٢٧ هـ ينظر ابن سعد المطبقات الكبرى ج ٧/من ٢٠٠، حلية أبو نعيم الأولياء ١٨٠/٢.
 - (٤). أبو طالب المكي قوت القلوب ١٤٩/١.
 - (٥). سعید بن جبیر وهو من كبار زهاد عصره قتله الحجاج سنة ٩٥ هـ ينظر الشمراني المطبقات الكبرى ٤٢/١ بتصريف.
 - (٦). ذکرہ الشمراني المطبقات الكبرى مصر مطبعة مصطفی البابی الحلبي وأولاده طبعة ١٢٧٣، ٤٢/١.
 - (٧). هو أبو العباس محمد بن صبیح المذکر مولى بن عجل المعروف بابن السماك القاضي الكوفي وال Zahid المشهور ينظر ابن خلگان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر ٢٠٢/٢.

بتجافيها عنه)^(١) لقد برزت هذه المدرسة إلى الوجود وأصبحت قلعة من قلاع الإسلام وأمدت العالم الإسلامي بالعلم والمعرفة وبال التربية الروحية وفي السلوك.

رابعاً: مدرسة بغداد

((لقد ظهرت في أواخر القرن الثاني الهجري حين أصبحت بغداد مركز الإسلام السياسي والثقافي وضعف شأن التصوف في البصرة، فورثت بغداد التصوف البصري والمدني معاً، ووضعت له أساساً وقواعد، ولذا نجد في تصوف المدرسة البغدادية زهد أهل البصرة الذي كان متاثراً بنظريات المعتزلة الكلامية، وزهد أهل المدينة الذي كان متاثراً بالحديث. ومن أبرز من ظهر فيهم الأثر الأول: الحارث بن أسد المحاسبي ت ٢٤٣ هـ. في حين ظهر الأثر الثاني في الإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ))^(٢) ولا غرابة في ذلك لأن التصوف منهج عام يدخل فيه المحدث والمتكلم أشعري أو معتزلي وإلى غير ذلك.

خامساً: مدرسة نيسابور

وقد ظهر منتصف القرن الثالث الهجري حين انتقل مركز التصوف من بلخ أقدم مركز للتصوف في خراسان إلى نيسابور حيث ظهرت فرقه (الملامية)^(٣) ومن أشهر رجال الملامية أبو حفص الحداد وحمدون القصار وأبو عثمان الحيري وإن لهؤلاء الملامنة نظريات تختلف نوعاً ما عن

(١) - ذكره ابن خلkan في وفيات العيان ٢٠٢/٢.

(٢) - أبو العلا عفيفي التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص ٨٠ - ٩٥ بتصريف.

(٣) - فرقه صوفية تقوم على أساسين (اللامة) و(الفتوة) انظر أبو العلا عفيفي . التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص ٩٠

نظريات البغداديين ((قيل إن مشايخ بغداد اجتمعوا يوماً عند أبي حفص فسألوه عن الفتوى فقال: تكلموا أنتم فإن لكم العبارة واللسان فقال الجنيد: الفتوى إسقاط الرؤية وترك النسبة. فقال أبو حفص: ما أحسن ما قلت، ولكن الفتوى عندي أداء الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف. فقال الجنيد: قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذرته))^(١) وكان ذلك تأييداً أو إعجاباً من الجنيد بما قاله أبو حفص.

سادساً: مدرسة مصر والشام

كانت هذه المدرسة آخر مدرسة أمدلت المغرب العربي في نظريات التصوف فقد ظهرت هذه المدرسة في القرن الثالث الهجري، وأشهر من نبع فيها على الإطلاق (ذنون المصري)^(٢) ت ٢٤٥ هـ وهو ألمع شخصية صوفية في هذه المدرسة في فروعها المصري أما الفرع الشامي: من هذه المدرسة فاظهر رجاله وأقدمهم (أبو سليمان الداراني) ت ٢١٥ هـ وتلاميذه... وأغلب كلام هؤلاء في الدنيا وحقارتها، والشهوات واشتغال القلب بها أو خلوه منها، وفي القلب وصفاته، وصدئه، والصدق وفي التوبة ومحبة الله تعالى وما إلى ذلك من المسائل التي خاض بها معظم الصوفية)).

(١)- ينظر أبو مليحة الأولياء ج ١٠ / .

(٢)- هو ثوبان بن إبراهيم الزاهد شيخ الديار المصرية كان عالماً فصيحاً حكيمًا، روى عن مالك واللبث بن لهيعة وسفيان بن عيينة وغيرهم، ينظر سير الذهبى أعلام النبلاء ٢٤٢/١١، الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ٢٣٩٣ / ٨ أبو نعيم، الحلية ٢٣١/٩

الفصل الثالث

مباحث ابن خلدون في التصوف

$\forall \xi$

لقد تكلم ابن خلدون في التصوف عندما سئل في المناظرة التي حصلت بين فقراء الأندلس من الصوفية حول مسألة الاكتفاء بالرسوم وقراءة الكتب التي ألفت في السلوك، كتاب (الرعاية لحقوق الله) للحارث المحاسبي، وكتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الفزالي عن وجود شيخ مرشد يعرف مهافي الطريق وغوائله. فأجاب عن ذلك بشرح وافر أسماء (شفاء السائل لتهذيب المسائل).

ولقد أفراد ابن خلدون في كتابه الكبير (المقدمة) فصلاً خاصاً في علم التصوف وستتعرف على آراء ابن خلدون في التصوف من خلالهما.

المبحث الأول . في تعريف التصوف واشتقاقه :

عرف ابن خلدون التصوف بأنه: (رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده مقدماً الاهتمام بأفعال القلوب ومراقباً خفاياها حريصاً بذلك على النجاة)^(١) وهو بذلك يعرف التصوف من خلال الرسم الذي يميشه في نفسه، وبالرغم من أن هذا التعريف يقارب لكتير من التعريفات التي أوردها الصوفية في كتبهم والتي أشرنا إلى قسم منها في الفصل السابق، إلا أن ابن خلدون تتبه لمسألة تباين التعريفات وشخصه بدقة بقوله (وقد حاول كثير من القوم العباره عن معنى التصوف بلفظ جامع يعطي شرح معناه فلم يف بذلك قول من أقوالهم، فمنهم من عبر بأحوال البداية (بداية التجربة الصوفية) ومنهم من عبر بأحوال النهاية.. ومنه من عبر بعلامة، ومنهم من عبر بأصوله ومبانيه.. ومنهم من جعل ذلك الأصل والبني واحداً.. وأمثال هذه العبارات كثير، وكل واحد منهم يعبر عمما وجد وينطق بحسب مقامه، والحق فإن التصوف لا ينطبق عليه حد واحد)^(٢).

ويقول في موضع آخر:

(إن الطرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق أجمعين، وإن كان واحداً في

(١). ابن خلدون شفاء السائل لتهذيب المسائل تحقيق الأب أغناطيوس عبد خليفة اليسوعي - بيروت المطبعة الكاثوليكية من ٧٩.

(٢). انظر عرفان عبد الحميد، دراسات في الفكر العربي الإسلامي - بيروت دار الجبل طبعة الأولى ١٤١٢ - ١٩٩١ من ٢٠٥ نقلأً عن شفاء السائل تحقيق محمد تاویت الطنجي من ٨٨.

نفسه، فكل سالك يليق به من التربية ما لا يليق بغيره، والأحوال والماجد والواردات والمذاهب والعلوم والإلقاءات والمعارض في السلوك تختلف بحسب الأشخاص والأحوال والبداية والنهاية والقوة والضعف^(١).

والحقيقة إن هذا التباين قد تباه إليه أئمة الصوفية قبل ابن خلدون وعلوا هذه الصعوبة بما رأوه من خلال تجاربهم فنرى ذلك واضحاً في أقوالهم يقول الإمام الفزالي: (وهؤلاء) (يعني الصوفية)

أقوالهم تعرب عن أحوالهم، فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الفالية عليهم)^(٢).

كذلك نجد أن هذا المعنى يزداد وضوحاً في كلام شيخ من شيوخ التصوف وهو الشيخ عمر السهروردي (ت ٦٣٢ هـ) فيقول:-

((في حين أمكن تعريف علوم الفقهاء وحدّها بالعبارة، لأنها علوم ورسوم تناول بالتعلم والاكتساب، فإن علم التصوف ليس مما يمكن حده لأن إشارات وبواده وعطایا وهبات يفرقها أهلها من بحر العطاء الذي لا ينتهي مده))^(٣).

ثم يذكر ابن خلدون تعريفاً آخر من حيث أصل التصوف ومنهاج العمل فيه فيقول: ((هذا العلم من العلوم الحادثة في الملة، وأصله إن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهدى، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكأن

(١) - ابن خلدون شفاء العمايل تحقيق أغناطيوس من ٦٧.

(٢) - الفزالي إحياء علوم الدين بيروت، دار الكتب العلمية من ٤ - ٨٢.

(٣) - عمر السهروردي عوارف المعارف بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي من ٥٤ / ٧٤.

ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده جنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختصَّ المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة^(١).

وهو بهذا التعريف يعتبر التصوف صفة لقوم اتصفوا بها لقيامهم بأعمال خاصة ورياضات وخلوات تعبدية مؤداتها رفع هممهم بحصول الكشف عن سُرِّ المحجوب ونيل السعادة بالأنس بحضوره المحبوب.

وقد وافقه بهذا التعريف الإمام القشيري في رسالته حيث عبر عن ذلك بقوله:-

((إن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفالهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا فضيلة لهم فوقها فقيل لهم "الصحابة" ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ورأوا بذلك أشرف سمة ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتبينت المراتب، فقبل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والتعباد ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراجعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة))^(٢).

وبهذا الفهم التاريخي للتطور وأثره وتمكن ابن خلدون من متابعة هذه الفكرة التي بدأها شيوخ التصوف أنفسهم، والتي أثبتوا من خلالها أصل

(١) - ابن خلدون المقدمة . بيروت . نـ دار إحياء التراث العربي (بلا تاريخ) ص / ٤٦٧ .

(٢) - الإمام القشيري الرسالة القشيرية بغداد . مطبعة متير أو قسط ص / ١٢ .

نشأة التصوف الإسلامي؛ ولكن ابن خلدون قد تابع تطور التصوف بطريقة أخرى، وهي دراسة الأحوال النفسية والقلبية التي يمر بها السالك في هذا الطريق ونرى جيداً في تحقيقه لطريق الصوفية.

وعلى كل حال لقد وضع ابن خلدون أساساً بنى عليه الباحثون المحدثون نظرتهم إلى تعريف التصوف المتبادر من حيث اللفظ المتفق من حيث المعنى في quo الدكتور أبو العلا عفيفي: ((أجمع الصوفية في كل العصور على أن تجاريم الروحية أمور تستعصي على الوصف وتعلو على التعبير، وأثر الكثيرون منهم الصمت فلم يحاولوا أن يضعوا لها تفسيراً أو تعليلًا، وإنما وصفوا ما أدركوه أو شاهدوه أو كشف لهم عنه من الأحوال بأنها أمور "ذوقية" أو "وجدانية" لا تفي اللغة بالتعبير عنها أو ترجمتها بالألفاظ)).^(١).

والحقيقة أن ابن خلدون قد سبقهم في هذا التحليل وقد كان أبين دلالة في هذا الفرض حيث قال: ((إن المعاني التي يتناوله هذا السلوك ويقع فيها التفاهم نوعان: - نوع من قبيل المتعارف عند الأفكار من المدارك المحسوسة والمعقولة فتضبطه القوانين وتستقل بإفادته الكتب والعبارات وهو صورة السلوك المحسوسة من قطع العلاقة عن النفوس والتزام الحق والذكر على الهيئة المخصوصة والاقتصاد على الفروض والرواتب وبعد تحصيل مجاهدة التقوى ومجاهدة الاستقامة.

ونوع آخر ليس من قبيل المتعارف عند الأهدان ولا في التصورات وليس من مدارك الحس والعقل والعلوم والكتابية بل هي أمور ذوقية وجدانية يجدها الإنسان في نفسه ولا يقدر أن يصورها لغيره إلا بضرب مثال أو

(١). أبو العلا عفيفي. التصوف الشورة الروحية في الإسلام. بيروت. دار الشعب للطباعة والنشر. من

تجوز بعيد فلا يمكن ضبطها بالقوانين العلمية ولا بالعبارات الاصطلاحية ولا دخولها تحت الأبواب والفصول الصناعية. وهي ما يعرض للسائل في سلوكه من طوارئ العلل والأحوال والواردات والإلقاءات والماجد وسائر ما يعتريه منها من ابتداء سلوكه إلى انتهائه وخوضه المعرفة والتوحيد. وهذا النوع هو نكبة السلوك وسره وحقيقة التي لا يتم شيء من دونها فما لم يتصور السالك هذه المعانى ويميز بعضها عن بعض ويفرق بين ما يكون منها مشى نحو مطلوبه مما يطوق عائقاً كان عمله مجاناً ولم يتم له مطلوب لا ابتداءً ولا انتهاءً وليست الكتب مما يفيد ذلك بوجه ولا العبارة مما تحصله في الذهن فلابد من الشيخ الذي ميز بذوقه أعيانها وفرق بين ضارها ونافعها يشير إلى أعيانها إشارة الأبكم إلى أعيان المحسوسات ولا يقدر على العبارة عنها وهذه الإشارة إلى العيان أبلغ من الإفادة بالعبارات. ولهذا لا تجد هذه الأمور ملخصه في كتاب ولا مقررة في ديوان من بين معاني التصوف إلا ما يقع من ذلك إشارة أو في حكاية لا تكشف عباراتها عن وجه المقصود)).^(١).

وقد كان كلام ابن خلدون هذا دلالة على مدى علمه وإطلاعه على أقوال أئمة الصوفية في ذلك ولم تغب عن عينه لحظة واحدة نظرة المؤرخ المدقق في آراء من سبقه في هذا الكلام حتى أتنا لنجده في كثير من الأحيان يستشهد بأقوالهم وهو بهذا الاستعراض يعد من مؤرخي علم التصوف.

ونحن نميل إلى الرأي الأول الذي ذكره ابن خلدون وفحواه أن الاختلاف لا أثر للسنين فيه وإنما صدر في جملته عن التباهي في (المقام)^(٢)

(١) - ابن خلدون شفاء السائل - تحقيق أغناطيوس ص ٦٢ - ٦١

و(الحال)^(١) حتى يتمكن من تحديد فحوى تجربته الروحية وإن كان لا يملك الأداة الصائبة لنقلها وإيصالها إلى الآخرين ولكن كما أشار ر بما بضرب مثل قد يكون بعيداً أو يمتع عن الكلام بما عرض له من ذلك أو ربما يزداد الفيض الوارد عليه فيتكلم بكلام غير مألف وربما يكون ذلك الكلام خارج عن غير إرادته وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بأن منهم من تملكه الواردات، وهذا الكلام لا يقاس عليه وإنما القياس هو حال صلاح ذلك السالك أو عدمه.

كما يعبر عن ذلك الغزالى بقوله: ((وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضعي اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشرافها وانخفضت عن ذروتها أبصارهم))^(٢).

(١) - المقام: هو عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف وبحقيق به يُضرب ثطلب ومقاساة تحلف، ينظر الجرجاني التعريفات ص ١٥٥.

(٢) - الحال: الأحوال مواهب ومقامات مكاسب، واقع الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل الجهد، ينظر الجرجاني التعريفات ص ٥٦.

(٣) - الغزالى إحياء علوم الدين - دمشق - عالم الكتب (بدون تاريخ) ج ٤ من ٨٣.

المبحث الثاني: ابن خلدون والتتصوف

ولابن خلدون طريقة الخاصة والمشوقة في عرض أي فكرة أو نحلة منذ بدايتها حتى نهايتها والتتصوف باعتباره حالة ذوقية وتجربة فردية فهو باق ببقاء الإنسان وبقاء علاقته بالله تعالى، إذن فلنتابع بداياته مع ابن خلدون حيث يقول: - ((أعلم نور الله قلوبنا بالهدایة، إن الله فرض على القلوب من الاعتقادات وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات. فجميع التكاليف الشرعية التي تعبد بها الإنسان في خاصة نفسه يرجع إلى نوعين: - أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة وهي أحكام العبادات والعادات والمتاولات. وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة وهي الإيمان وما يتصرف في القلب ويتلون به من الصفات.

أما المحمودة كالعفة والعدل والشجاعة والكرم والحياء والصبر، وأما المذمومة كالعجب والكبر والرياء والحسد والحدق. وهذا النوع أهم من الأول عند الشارع وإن كان الكل مهماً لأن الباطل سلطان الظاهر المستولي عليه، وأعمال الباطن مبدأ لأعمال الظاهر وأعمال الظاهر آثار عنها. فإن كان الأصل صالحاً كانت الآثار صالحة وإن كان فاسداً كانت فاسدة))^(١).

ثم يواصل كلامه عن الصفات المذمومة وما ينتج عنها من الهلاك وسبل تطويق هذه الصفات وجعلها تحت إمرة العقل بحيث يتم استغلالها

(١) . ابن خلدون شفاء السائل تحقيق أغناطيوس من /٢٣.

للحير أو تعطيلها عن أعمال الشر، ثم يتكلم في الصفات المحمودة وما تضيّن به على القلوب من أنوار وتجعله مشرقاً، ويستشهد بذلك من أحوال الصحابة الكرام الذين هم أول من تتبع أعمال القلوب واهتم بتصفيّة السرائر فطابت بذلك سيرتهم فيقول: ((ومن هنا كان الإيمان رأس الأعمال وأرفع مراتب السعادة لأنه أرفع الأعمال الباطنة كلها فكيف الظاهرة.

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم لما شرح الله صدورهم للإسلام وقبلوا من نور الهدى ما كانوا فيه على بيته من ربهم صرفوا الاهتمام إلى أعمال الباطن أكثر من أعمال (الظاهر)^(١) فكانوا يراعون أنفاسهم ويراقبون خطراتهم ويختذلون غواييل قلوبهم. وفي هذا كانت أكثر مفاوضاتهم وفرز بعضهم إلى بعض. ومن معظم تحرزهم واعتبر ذلك في مثل سؤال عمر ابن الخطاب حذيفة رضي الله عنهما وقد ذكر حذيفة المنافقين وإشارة إلى ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنهم فقال له عمر نشدتك الله الذي بأذنه تقوم السماء والأرض هل تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئلني فيهم؟ قال: - لا ولست أبرئ بعده أحداً. فانظر إلى حذر عمر رضي الله عنه من هذا النفاق وتأمل ما هو تجد ما يحذر من خفيات الأعمال الباطنة المذمومة المحبطة ويعرفك بذلك^(٢) إن شأنها مهم وخطرها في الدين عظيم. إذ لو كان مراد عمر وحذيفة بهذا النفاق مدلوله المشهور وهو إظهار الإسلام وإضمار الكفر كما كان في منافقي المدينة وغيرهم لما حذر عمر من ذلك وفرز فيه إلى علم حذيفة إذ هو يعلم من نفسه أنه مبراً منه وكيف يخفى على عمر وكل

(١) - في الأصل (الباطن). وقد صصحه المحقق.

أحد يعلم من نفسه ما أكَنَّ وما أبْدَا فالذِي حذرَهُ عمر صنفَ آخرَ من النفاق وهو ما يكون في أعمال الباطن من خفايا المهلَكات تقع فلتة ولا يعلَمها الإنسان من نفسه ويعلَمها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإطْلاعِهِ على القلوب ومعاينته لأعمالها وأسرارها بما خصمَ اللهُ به من ذلك) ^(١).

ثم نجد أن أئمة الصوفية قد توافقت أقوالهم مع ابن خلدون في التركيز على القلب وأعمال الباطن وتتقىه مما يشوهه، والحذر من خفايا هذه الأعمال فنرى الإمام الفزالي يحذر من ذلك فيقول: ((ثم عليك بحفظ القلب وإصلاحه وحسن النظر في ذلك وبذل المجهود. فإنه أعظم هذه الأعضاء خطراً، وأكثرها أثراً، وأدقها أمراً وأشقها إصلاحاً)) ^(٢).

ثم نرى كبار الصوفية يحذرون، ويُحذرون من عقبات هذه الأمور مقتدين بفعل عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) ونرى ذلك جلياً في كلام الشيخ محى الدين ابن عربي حيث يقول: ((إذا امتلأ القلب من المعرف فلتحذر النفس فإنها مخربة الديار مبددة الشمل)) ^(٣).
وقال الحارث المحاسبي رحمه الله ^(٤):

((يا أخي هبْني أحذرُكَ ونفسي مقاماً عنْتَ فيَهِ الوجهِ وخشعتَ فيَهِ الأصواتِ ودلَّ فيَهِ الجبارونَ وتضَعَضَ فيَهِ المتكبرونَ واستسلمَ فيَهِ الأولونَ والآخرونَ بالذلِّ والمسكنةِ، والخاضُونَ لربِّ العالمينِ وقد جمعُهم

(١) - ابن خلدون شفاء السائل ص ٢٥

(٢) - أبو حامد الفزالي - منهاج العبادين تحقيق د. محمود مصطفى حلاوي - بيروت - موسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م من ١٤٣.

(٣) - محى الدين ابن عربي مكتاب التراجم ضمن رسائل ابن عربي بيروت - لبنان - دار إحياء التراث العربي الطبعة الأولى ١٣٦١ هـ - ٢٩ ص ٢.

(٤) - هو أبو عبد الله الحارث بن المحاسبي الزاهد العارف شيخ الصوفية له تصانيف عديدة في التصوف (ت ٢٤٣ هـ) له ترجمة في الحليه ١٠ / ٧٢ والبداية والنهاية ١٠ / ٣٤٥، وسير أعلام التبلاء ١٢ / ١٠.

القهار الذي لا ثانٍ له في الهيئة، ولا مشارك في حكمه جمعهم بعد طول
البلى للفصل والقضاء، في يوم ألى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبداً
أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله في سره وعلانيته.
فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وأعد لسؤال جواباً وللجواب صواباً.
فإنه لا يصدق إلا الصادقين. ولا يكذب إلا الكاذبين^(١).

ثم يواصل ابن خلدون الكلام في تحقيق طريق الصوفية فيقول: .
((ثم لهم مع ذلك آدابٌ مخصوصةٌ بهم وأصطلاحاتٌ في الفاظ تدور
بينهم إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة فإذا عرض من
المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه
فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد
غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين.
صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي العامة في العبادات
والعادات والمعاملات.

وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس
عليها والكلام في الأذواق والواحد العارضة في طريقها وكيفية الترقى
منها من ذوق إلى ذوق وشرح الأصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما
كتبت العلوم ودونت وألفَ الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير
وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم فمنهم من كتب
في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله
القشيري في كتاب الرسالة والسهوردي في كتاب عوارف المعرف

(١) - الحارت الحاسبي، الرعاية لحقوق الله - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - بيروت لبنان دار الكتب
العلمية - طبعة الرابعة ((بدون تاريخ)) - ص ٢٦.

وأمثالهم وجمع الغزالى رحمه الله بين الأمرين في الأحياء فدون فيه
أحكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في
عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علمًا مدوناً بعد أن كانت الطريقة
عبادةً فقط وكانت أحكامها إنما تتعلق من صدور الرجال كما وقع في
سائر العلوم)).^(١).

(١) . ابن خلدون . المقدمة ص / ٤٦٠ .

المبحث الثالث: الرياضة عند الصوفية

ومن المواضيع المهمة التي بحثها ابن خلدون بدقة موضع الرياضة الصوفية فبعد شرح دقيق لأنواع الرياضات والمرتاضين نجد ابن خلدون يميّز الرياضة الصوفية بأهم صفة تميّزها عن غيرها فيقول: - ((واما المتّصوفة فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المذمومة وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع والجوع التغذية بالذكر كانت تتم وجهتهم في هذه الرياضة لأنه إذا نشأت النّفّس على الذّكر كانت أقرب إلى العرفان بالله وإذا عرّيت عن الذّكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرّف لمؤلاء المتّصوفة إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيها لغير الله وإنما هي لقصد التصرّف والإطلاع على الغيب وأخسر بها صفة فإنها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم العبود لا لشيء سواه وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل وبالعارض وغير مقصود لهم وكثير منهم يُفْرَّزُ منه إذا عرض له ولا يحصل به وإنما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف)).^(١).

والتصوف الذي يظهر عبارته ابن خلدون هو ذلك التصوف السنّي الذي

(١) ابن خلدون المقدمة ص ١٠٩ . ١١٠.

يمثل على وجه الخصوص تصوف الجنيد البغدادي وأبو حامد الغزالى وغيرهم من الذين نجد شواهد أقوالهم في عبارات ابن خلدون واضحة ومن ذلك ما قاله الجنيد في الرياضة الصوفية وعن حال صاحبها فيقول: ((عبد ذاهبٌ عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته وصفاء شريه من كأس وده، وانكشف له الجبار من الستار غيبه، فإذا تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله)).^(١)

ونرى ابن خلدون في موضع آخر يفصل ذلك تفصيلاً يعتمد فيه كما قدمنا على ما قال به الأسلاف من أئمة التصوف فيقول: ((أما الرياضة فهي تصفية القلب عن الرذائل والخبائث المذمومة وتزكيته بالفضائل المحمودة التي هي الاستقامة والاعتدال في كل خلق من أخلاق غرائزه وجلاته فعلاج ذلك في الظاهر: أولاً: برفض ما يقع إليه الميل غالباً ويستهوي منه الشيطان قلوب المؤمنين من زينة الدنيا وشهواتها وهو الجاه والمال ومخالطة الخلق وشهوات البطن والفرج والراحات من النوم والملاد. قال الله تعالى: (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهْوَاتِ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَشَهْوَاتِهَا وَهُوَ الْجَاهُ وَالْمَالُ وَمُخَالَطَةُ الْخُلُقِ وَشَهْوَاتُ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ وَالرَّاحَاتُ مِنَ النُّومِ وَالْمَلَادِ). المقاطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيول المسمومة والأنعام والحرث ذلك متع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)^(٢) فيتجنبها ويزهد فيها وبهجرها هجران الحياة القوائل ما دام مائلاً عن الاستقامة حتى يظفر بها ويتمكن في مقامها.

ثانياً: ثم يحتاج في الباطن إلى علاج ما يكون من آثارها وارتفع من

(١) - القشيري رسالة القشيرية من ١٤٧٠.

(٢) - سورة آل عمران، آية ١٤٧.

عليقها فلا بد أن يخليه من ذلك كما أخلى الظاهر من أسبابه وفيه
تطول المجاهدة وتحتختلف باختلاف الأحوال والسن والمزاج. والغالب من
الصفات المذمومة وعلم ذلك غامض إلا على من يسره الله لليسرى وربما
كان الشيخ من ميسرات الله له وأسباب هدایته. والقانون العام في هذه
الرياضة والعلاج مخالفة الهوى ومضادة الشهوة والباعث في كل صفة
غالبة على نفس (المريد)^(١) كما قدمناه حتى تحصل الاستقامة والاعتدال
ويذهب الهوى والميل إلى الشيء من جانبي الغرائز الجبلية فيتساوى عنده
الفعل والترك ويصرفها في طاعة الحق والعدل ويتمحض لجانب الله^(٢).
وببدأ رياضة الصوفية بأهم الأمور وأجلها وهي تقوى الله . كما يحدد
ذلك كبار أئمة الصوفية يقول الحارث المحاسبي رحمة الله : ((قليلك
أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام تقوى الله عز وجل في السر والعلنية.
ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقيين . حين ينجز لهم ما وعدهم
من الأمان والغبطة والسرور .

وما تركهم اللطيف في الدنيا مع ما يعطفهم في الآخرة . حتى أنار لهم
قلوبهم وأعزَّ لهم أنفسهم . وأغناهم به عن خلقه ونعمتهم بطاعته . فألزم
قلوبهم إليه جل وعز . وإلى جنته . فنقلهم من المكابدة إلى النعيم بطاعته
والسور بها . وفُتح لهم من الدنيا باليسir منها . فطليب فيها عيشهم . وأحسن
فيها نصرهم ومعونتهم . وذلك الذي وعدهم فقال عز وجل : (إن الله مع

(١) . المرید : (من انقطع إلى الله عن نظر واستبصر وتجرد عن إرادته إذا علم أنه ما يقع في الوجود إلا
ما يريد الله تعالى لا ما يريد غيره فيمحوا إرادته في إرادته فلا يريد إلا ما يريد الحق) ينظر
الجرجاني التعريفات ١٤١ .

(٢) . ابن خلدون شفاءسائل تحقيق أغناطيوس من ٢٧ .

الذين اتقوا والذين هُم محسنون)^(١) ثم يتتابع الحديث عن أصحاب هذه الرياضيات. صفاتهم فيقول: (حزنهم فيما يُسْرُّ به الناس، وسرورهم فيما يحزن له الناس، وطلبهم لما يهرب منه الناس، وهرفهم مما يرحب فيه غيرهم من أهل الغفلة والغيرة، يستأنسون إذا استوحش الناس، إذ كان أنفسهم بالله عز وجل وحده استكمالاً لمناجاته، فعنده يضعون بشوئهم وإليه يفزعون في حوايجهم، وقد اتخاذوه حرزاً وجنة وكهفاً، وثقوا به دون خلقه، وانقطعوا إليه عز وجل عن كل قاطع يقطعهم عنه، فاستوحشوا حين استأنس الناس استيحاشاً عن الخلائق واستثناساً بربهم)^(٢).

ثم أن الغزالى يرتفق بهذه الرياضيات إلى هم أعلى فيقول: ((وهو أنه إذا حاسب نفسه فرأها قد فارقت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رأها توانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بثقل الأوراد عليها ويلزمها فتواناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط فهكذا كان يعمال عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم))^(٣).

(١) . سورة النحل آية ١٣٨ .

(٢) . الحارث المحاسبي، لرعاية حقوق الله ص ٢٧ .

(٣) . الغزالى إحياء علوم الدين ٤ ٢٤٨ .

المبحث الرابع: مجاهدات الصوفية ويواعتها

لقد تكلم ابن خلدون في المجاهدات وأقسامها وشروطها وأحكامها معتمداً في ذلك على الأصول التشريعية الأولى في الإسلام وهم القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة وكلام كبار مشايخ الصوفية الذي أودعوه في كتبهم فيقول: ((وخلالصة القول في ذلك على ما تأدى إلينا من تصفح مذاهبهم وتتبع أقوالهم أن المجاهدة على ثلاثة أوضاع متباينة بعضها متقدم على بعض.

الأولى: مجاهدة التقوى: وهي الوقوف عند حدود الله كما مر أول الكتاب لأن الباعث على هذه المجاهدة طلب النجاة فكأنها انتقام وتحرز بالوقوف عند حدود الله عن عقوبته وحصولها في الظاهر بالنزوع عن المخالفات والتوبية عنها وترك ما يؤدي إليها من الجاه والاستكثار من المال وفضول العيش والتعصب للمذاهب. وفي الباطن مراقبة أفعال القلب التي هي مصدر الأفعال ومبدئها أن يلم مقارفة محضور أو إهمال واجب^(١)) هي مواقف ابن خلدون في ذلك. أعلام من جلة شيوخ الصوفية ومنهم ابن عطاء الله السكندي والإمام القشيري وغيرهم قال ابن عطاء: .

((لتقوى ظاهر وباطن فظاهره محافظته الحدود وباطنه النية والإخلاص))^(٢).

وقال الإمام القشيري:

(١) - ابن خلدون شفاء السائل تحقيق أغناطيوس من ٣٤.

(٢) - القشيري الرسالة القشيرية طبعة دار التربية من ٨٨.

((قال ابن عمر: حقيقة التقوى أن تدع ما لا يأس به مخافة مما به يأس.
وقال: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر. وقال أبو
بكر الصديق (رضي الله عنه)): كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة
أن نقع في باب من الحرام)).^(١)

وقال الجرجيري: ((من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم
يصل إلى الكشف والمشاهدة)).^(٢)

الثانية: مجاهدة الاستقامة:-

((وهي تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع أخلاقها حتى
تهذب بذلك وتحقق فتحسّن أخلاقها وتصدر عنها أفعال الخير بسهولة
وتصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة والتهذيب خلقاً جليلة كان
النفس طبعت عليها. والباعث على هذه المجاهدة طلب الفوز بالدرجات
على درجات الذين أنعم الله عليهم إذا الاستقامة طريق إليها. قال تعالى:
(آهـنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم)).^(٣) وما كلف
الإنسان بطلب هذه الاستقامة سبعة عشرة مرة في اليوم والليلة عدد
ركعات الفروض التي يجب فيها قراءة أُم القرآن إلا لفُسر هذه الاستقامة
وعزة مطلبها. وشرف ثمرتها)).^(٤)

وبناء الكلام في هذه المجاهدة فيقول:-

((وحصول هذه الاستقامة بعلاج خلق النفس. ومداواتها بمضادة الشهوة
ومخالفه الهوى ومقابلة كل خلق يجس هواه والميل إليه والاعتداد به

(١) . القشيري الرسالة القشيرية ت ضمن الطبيعة من ٩٠

(٢) . المصدر نفسه من ٣٩ /

(٣) . سورة الفاتحة / آية ٦٠

(٤) . ابن خلدون شفاءسائل تحقيق أغناطيوس، من ٢٥

بارتكاب ضده الآخر كمعالجة البخل بالسخاء، والكبراء بالتواضع، والشره بالكف عن المشتهى، والغضب بالحلم. قال تعالى: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)^(١) وقال تعالى: (كلوا واشريوا ولا تسرفوا)^(٢) وقال تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط)^(٣) وقال تعالى: (أشدّاء على الكفار رحماء بينهم)^(٤) ثم مع هذا العلاج لا بد من الصبر على مراتبه)^(٥) ثم يستشهد بقول الجنيد البغدادي فيقول: قال الشيخ أبو القاسم الجنيد: (اعلم أن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها خروج عن المعمودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق).^(٦)

((وقيل في معنى قوله(صلى الله عليه وسلم): ((شيتني هو وأخواتها))^(٧) إنه لما فيها من تكليف الاستقامة في قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت).^(٨) لكن الأفعال ولو كانت أول صدورها متکلفة وصفة شاقة فإذا تكررت ارتفعت آثارها إلى النفس شيئاً فشيئاً ولا تزال كذلك حتى تصير صفة راسخة وجلية طبيعية كما يقع لتعلم الكتابة مثلاً يتکلفها أولاً شاقة عليه ولا تزال آثارها ترتفع إلى النفس شيئاً فشيئاً حتى تحصل صفة الكتابة للنفس كأنها جبلة. وتتصدر الكتابة الحسنة كأنها مقتضى

(١) - سورة القرآن آية .٢٥

(٢) - سورة الأعراف آية .٧

(٣) - سورة الإسراء آية .١٧

(٤) - سورة الفتح آية .٤٨

(٥) - ابن خلدون شفاء السائل تحقيق أغناطيوس من .٢٥

(٦) - ذكره القشيري في رسالته حفظ (قيل ولم ينسبة إلى أحد) ص .١٦ / .١

(٧) - رواه الترمذى في تفسير سورة هود برقم .٥٦

(٨) - سورة هود الآية .١١

طبع وليس المراد من هذا العلاج في هذه الاستقامة قمع الصفات البشرية وخلعها بالكلية فإنها غرائز جبلية خلق كل منها لفائدة فلا يتصور منع الشهوة إلا لملك الإنسان جوعاً وانقطع النسل تبتلاً. ولا قلع الفضب وألا لملك بالعجز عن مدافعة المعتدي. بل المزاد من هذا العلاج تمكّن الاستقامة في النفس حتى تصرّف هذه الغرائز بمقتضى آداب الله تصريفاً جبلياً لما فيه من التوطين على ما تشير إليه بعد الموت من قطع علائق الحياة والإقبال على الله فتأتي الله بقلب سليم من الميل عن الاستقامة لأنها كلما مالت عن الاستقامة علقت بها صفة من خلقها فثبتت به وأقبلت عليه وحصل لها بقدر الإقبال عليه إعراض عن الله وهذا هو معنى محو الصفات المذمومة عن القلب وتزكيته بالصفات المحمودة إذ كلُّ مسالِل عن الوسط والاعتدال مذموم^(١)). قال الواسطي^(٢) ((الخصلة التي بها كملت المحسن الاستقامة))^(٣) ثم يتابع ابن خلدون الكلام في شروط هذه المجاهدة وهما شرطان: -

الأول: - الإرادة والثاني: - الرياضة وقد تكلمنا عنها في فقرة سابقة. أما الإرادة وكما يقول ابن خلدون: ((وليس قدصهم بالإرادة مدلوها في المشهور وهو تخيل الشيء والقصد إليه. فإن هذا عندهم حديث وإنما الإرادة عندهم استيلاء حال اليقين على القلب حتى تتبع العزائم

(١) - ابن خلدون شفاء السائل تحقيق أغناطيوس ص ٣٦. ٣٥

(٢) - هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي أصله من فرغانة. وهو من علماء مشايخ القوم لم يتكلّم أحد في أصول التصوف مثل ما تكلّم هو. وكان عالماً بالأصول وعلم الظاهر. ينظر أبي عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية ص ٢٠٢. أبي نعيم، حلية الأولياء ج ١ / ص ٣٤٩.

(٣) - ابن خلدون. شفاء السائل تحقيق أغناطيوس ص ٣٦.

بالكلية إلى الفعل مغلوباً فيه فكان المريد مجبر في إرادته لا مختاراً^(١).
ثم ذكر ابن خلدون كلاماً قال: قال (أبو القاسم)^(٢): ((الإرادة بده طريق السالكين وهي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله تعالى. وإنما سميت هذه الصفة إرادة لأن الإرادة مقدمة كل أمر. فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله سُميَّ إرادة تشبيهاً بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها))^(٣).

وقال القشيري عن حقيقة الإرادة: ((وحقيقتها نهوض القلب في طلب الحق. وقيل إنها لوعة تهون كل روعة))^(٤).

وقال الشيخ (عبد القادر الكيلاني)^(٥) ((فبان بذلك أن حقيقة الإرادة إرادة وجه الله، فحسب ذلك زينة الدنيا والأخرى))^(٦).

ثالثاً: مجاهدة الكشف الصوفي: وشروطها

ويواصل ابن خلدون كلامه في أنواع المجاهدات وصولاً إلى مجاهدة الكشف فيقول: -(وهي إخماد القوى البشرية وخلع الصفات البدنية بمنزلة ما يقع للبدن بالموت. ثم محاذاة شطر الحق باللطيفة الريانية

(١). ابن خلدون - شفاء المسائل تحقيق أغناطيوس من ٣٦ - ٣٧.

(٢). لا نعرف أهوا: (أبو القاسم الجنيد) أم (أبو القاسم القشيري).

(٣). ابن خلدون شفاء المسائل ص ٣٧.

(٤). القشيري الرسالة القشيرية ص ٩٢.

(٥). (هو عبد القادر بن موسى حنكي دوست (معي الدين أبو صالح) ٤٧١ - ٥٦١ هـ الإمام العالم الزاهد المارف القدوة. شيخ بغداد. ولد ببحيلان وعاش (٩٠) سنة وتوفي ببغداد. من أكابر مشايخ الصوفية. وأسلم بارشاده الكثير وله كرامات اشتهرت على السن العوام والخواص. ينظر ابن الجوزي في المتنظم ٢١٩/١٠ وأيضاً ابن كثير في البداية والنهاية ٢٥٢/٢. والذهب في سير أعلام النبلاء ٤٣٦/٢٠.

(٦). عبد القادر الكيلاني الحسني الفتنية لطابي طريق الحق تحقيق فرج توفيق بغداد مطبعة أوностه ١٩٨٨/٢.

لينكشف الحجاب وتظهر أسرار العوالم والعلوم واضحة للعيان وهو العلم الإلهامي الذي قدمنا أنه يحصل بالتصفيه ولهذه المجاهدة شروط وهي:
الأول: حصول التقوى الذي قدمنا شرح مجاهدتها فإنها رأس العبادة وياعثها أول درجات النعيم وهو النجاة.

الثاني: حصول الاستقامة وهي شرط في هذا الكشف المفضي إلى العلم الإلهامي والذي هو تجلي الحقائق في القلب على ما هي عليه في نفس الأمر من غير خلل ولا انحراف.

الثالث: هو الاقتداء بشيخ سالك قد خبر المجاهدات وقطع بها طريق الله وارتفاع له الحجاب وتجلب الأنوار فهو يعرف أحوالها ويدرج المريد في عقباتها حتى تناح له الرحمة الربانية ويحصل له الكشف والإطلاع فإذا ظفر بالشيخ فليقلده أمره ويهتدي ويلقي نفسه بين يديه كالميت بين يدي الفاسل ويعلم أن نفعه في خطأً شيخ أكثر من نفعه في صواب نفسه.

الرابع: قطع العلاقة كلها عن النفس بالزهد في كل شيء والانفراد عن الخلق بالخلوة في مكان مظلم أفلف الرأس في الجب أو التدثر بكساء أو إزار. ثم الصمت بترك الكلام جملة ثم الجوع بمواصلة الصيام. ثم السهر بقيام الليل وهذه هي التي كان المطلوب في مجاهدة الاستقامة اعتمدتها حتى يصير استواء الفعل والترك فيها عند القلب جبلة طبيعية وأما هنا فيطلب تركها بالكلية وإخمام سائر القوى البشرية وإماتتها حتى الفكر ليكون ميتاً والبدن حي الروح إن مطلوب هذه المجاهدة فراغ تقلب عن كل ما سوى الله حتى كأن البشرية كلها ذاهبة ممحوّة شأن الميت.

الخامس: صدق الإرادة وهو أن يستولي حب الله على قلب المريد حتى

يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا هم واحد))^(١) وبهذه الشروط التي وضعها ابن خلدون تتحقق هذه المجاهدة ويصل السالك إلى مقام الكشف وهو مصدر المعرفة عند الصوفية ويعرفوه بأنه ما ينكشف به المعلوم انكشفاً تماماً وفي ذلك يقول (أبو بكر الشبلي)^(٢) للحصري: - ((إن كان يخطر على قلبك من الجمعة إلى الجمعة شيء غير الله فحرام عليك أن تأتيني))^(٣) وكان الشبلي ينشد فيقول:

تسريلت للحرب ثوب الفرق

وهمت البلاد لوجد القلق

ففيك هتك قناع الفو

وعنك نطقت لدى من نطق

إذا خاطبني بعلم الورق

برزت عليهم بعلم الخرق^(٤)

ثم يتكلم ابن خلدون في موضع آخر عن مجاهدة الكشف هذه فيقول:

(١) . ابن خلدون شفاء السائل نفس الطبعة من ٢٨ . ٤٠ بتصرف.

(٢) . هو دلف بن جحدن وهيل جعفر بن يوش، ولد بسامراء، وينسب إلى أشبيلية قرية وراء سمرقند، صاحب الجنيد وغيره، وكان عارفاً بمذهب مالك وكتب الحديث وله حكم وحال وتمكن، ينظر إلى المسلمي . طبقات الصوفية من ٣٢٧، الأصبهاني الحلية . ٣٦٦/١٠ .

(٣) . ابن خلدون شفاء السائل من ٤٠ .

(٤) . ابن الجوزي تلبيس إبليس نقلأً عن عزيز السيد جاسم . متصوفة بغداد من ٢٧٦ .

((ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والإطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها والروح من تلك العوالم وسبب الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشأة وأعan على ذلك الذكر فإنه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الريانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق العلي أفق الملائكة وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصررون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمنوا بالتكلّم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنّة ويتعودون منه إذا هاجمهم)).^(١).

وقال الفزالي في أسباب حصول هذه المجاهدة:

((ومطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله. والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحة من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال أو الجاه أو القبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولادة أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة فينبغي أن يترك أولاً ما به فرحة، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص

(١) - ابن خلدون المقدمة طبعة إحياء التراث العربي ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

بالم矜ع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها، وذلك مهلك في حقه ثم إذا ترك أسباب الفرج فليغترّ الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتعل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه. وليترصد لما يbedo في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر، فإن لكل وسوسة سبباً ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة. وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت)).^(١).

أحكام المجاهدات:

ونلاحظ روح الفقيه المالكي واضحة في شخصية ابن خلدون حين يسلط الضوء على هذه المجاهدات وأحكامها فيقول: ((ومن أراد الإطلاع على تفاصيل هذا كله والإحاطة بجميع حقائقه فعليه بكتب القوم وإنما أشرنا بحق على الجملة إلى ما تتميز به الطريقة عن غيرها وما كان لنهدي لولا أن هدانا الله وإذ بينا هذه المجاهدات وتميزها على الجملة وتميز بعضها عن بعض فلنذكر ملحوظيتها.

فأما المجاهدة الأولى: فهي فرض عين على كل مكلف إذ الواجب على كل مسلم أن يتقي عذاب الله بالوقوف عند حدوده.

وأما المجاهدة الثانية فهي مشروعة في حق الأمة، ففرض عين في حق الأنبياء صلوات الله عليهم وماخذتها من الشريعة ظاهر، وذلك أن الشارع لما كان حريصاً على النجاة وكانت الحكمة الشرعية والعادلة أن دفع المضمار مقدم على جلب المنافع أهاب بالكافرة إلى الدخول فيما ينجيهم من الهلاك ويأخذ بجزائهم عن الناس وهذه هي الأحكام العامة

(١) - الغزالى إحياء علوم الدين بيروت. دار الحكىـت العلمـية ٢/٧٤.

للمكلفين ونبه الخواص بهديه وطريقه ونعت بيته للتعيم والشقاء على
تفاوت الدرجات وتباین المنازل في السعادة وإن الصديقين والشهداء
والصالين لهم سعادة أخرى أعلى من النجاة وطريقها الاستقامة صراط
الذين أنعمت عليهم وأن أعلى مراتب هذه السعادة هو النظر إلى وجه الله.

أما المجادة الثالثة: وهي مجاهدة الكشف، فالذى نراه أنها محضورة
حضر الكراهة أو تزيد... مع ما فيه من المهالك والعواائق
التي يجب حذرها باجتنابه كما قدمنا ذكرها)).^(١).

(١) - ابن خلدون شفاء السائل تحقيق أغناطيوس ٤٥ . ٤٦ بتصريف.

البحث الخامس. كرامات الأولياء

لقد شرح ابن خلدون موضوع الكرامة شرحاً وافياً تناول به الجانب الاعتقادي والجانب التشريعي بعيارات موجزة تم عن بلاغة عالية فيقول: ((ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفاً وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب إلى إنكاره أبو اسحق الاسفرايني وأبو محمد ابن أبي زيد المالكي في آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها، والمعلول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن فيكم محدثين وإن عمر منهم))^(١) وقد وقع للصحابية من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر (رضي الله عنه): يا سارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين في معركة وهم بالانهزام وكان بقرره جبل يتحيز إليه هرر لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هناك والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضاً لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته (رضي الله عنهما) في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته ثم نبهها على جذادة لتعوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وإنما هما أخواك وأختاك فقالت إنما

(١). رواه البخاري في باب فضائل الصحابة بلفظ (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر). بيروت. دار الجبل (بدون تاريخ) ج ٥ / من ١٥.

هي أسماء فمن الأخرى فقال إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الواقع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمردي حالة بحضور النبي صلى الله عليه وسلم حتى أنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق^(١)) ولا تزيد أن نخوض في هذه المسألة بشكّل واسع لأن هذه المسألة من مباحث علم الكلام ولكن نحب أن نلمح إلى أن ابن خلدون قد قرر رأي أهل السنة والجماعة في هذه المسألة ولم يخرج عن آرائهم إذ جاء بالأدلة القاطعة لثبوت الكرامة في عقيدة أهل السنة والجماعة وأن الصوفية أكثر من ظهرت فيما بينهم الكرامات وإن كان المتحققون منهم لا يرضون بظهورها ويستحيون منها ويزدادون بها وجلاً وخوفاً.

قال (أبو علي الجوزاني)^(٢):

((كن صاحب استقامة لا صاحب كرامة. فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلبك بالاستقامة))^(٣).
وقد سُئل الأمام (أحمد بن حنبل)^(٤).

(١) . ابن خلدون المقدمة من ١١٠.

(٢) . هو الحسن بن علي أبو علي الجوزاني من كبار مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة تكلم في علوم الآفات والرياضيات والمجاهدات ربما تحمل أيضًا في شيء من علوم المعرفة والحكم. السلمي طبقات الصوفية /٢٤٦، أبو نعيم حلية الأولياء ٢٥٠/١٠.

(٣) . ابن خلدون شفاء المسائل ص ٢٢.

(٤) . أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني كان إمام المحدثين وإليه ينسب المذهب الحنبلي (١٦٤) .
٢٤١). ينظر ترجمته عند ابن خلدون في وفيات الأعيان ١/٦٤. عبد القادر يذزان وتهذيب ابن عساكر

((لم يشتهر عن الصحابة كثرة الكرامات كما وقع من بعدهم من الأولياء؟ فقال إنما لم يشتهر عن الصحابة كثرة كرامات لأن إيمانهم كان في غاية القوة بخلاف إيمان من بعدهم فكلما ضعف إيمان قوم كثرت كرامات أولياء عصرهم تقوية ليقين الضعفاء منهم))^(١).

نقد ابن خلدون للتتصوف

لقد تعرض ابن خلدون إلى بعض قضايا التتصوف بشيء من النقد وقد كان واقعياً في نقهـة لما رأه من أدعياء التتصوف في عصره بشكل عام وفي المغرب العربي بشكل خاص بالرغم من أنه لا ينكر أن يكون منهم من هو متبصر بأمره خالياً من الإدعاءات "وقد كانت بالغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة..."^(٢) وقد تابعه بعض الباحثين المحدثين بالقول: "وبنفي أن نؤكد أن التتصوف المغربي ضل بعيداً في غالب الأحيان عن كل نزعة باطنية"^(٣).

نقده كلامهم في الكشف:

يقول ابن خلدون: "إن طريقة المتصوفة منحصرة في طريقتين: الأولى هي طريقة السنة طريقة سلفهم الجارية على الكتاب والسنة والاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين والطريقة الثانية، وهي مشوية بالبدع، وهي طريقة قوم من المتأخرین يجعلون الطريقة الأولى وسيلة إلى

(١) - الشعراـني . الـيوـاقـيت والـجوـاهـر . مصر . مطبـعـة مصـطـفـى الـبابـي الـحلـبـي وأـلـادـه الـطبـعـة الـآخـرـة ١٤٧٨ هـ / ٢٦.

(٢) - ابن خلدون المقدمة ص ٢٢٤.

(٣) - علي أو مليل الخطاب التاريخي (دراسة منهجية ابن خلدون) بيـرـوت . الـطبـعـة الـثـالـثـة ١٩٧٥ مـ / ١٨٢.

كشف حجاب الحس لأنها من نتائجها. ومن هؤلاء المتصوفة ابن عربي وابن سبعين وابن برجان وأتباعهم ومن سلك سبيلهم وأدان بتحلتهم. ولهم تواليف كثيرة مشحونة بصرىح الكفر، ومستهجن البدع وتأويل الظواهر لذلك على أبعد الوجوه وأقبحها مما يستغرب الناظر فيها من نسبتها إلى الله، أو عدتها في الشريعة^(١).

ويقول في موضع آخر: "ثم أن هؤلاء المتأخرین من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثیر منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب (المقامات) له وغيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم"^(٢).

والرد على هذا الكلام يتعرض له ابن خلدون في مناسبة أخرى وذلك لقيامه التفرقة الواضحة بين وحدة الوجود، ووحدة الشهود ولكننا نراه يفرق في المراتب ويخلط في الأحكام مما أدى به في الواقع بالتناقض في كلامه.

يقول الدكتور: عرفان عبد الحميد:

"ومرد هذا الخلط من الأحكام إنما يرجع إلى عدم الانتباه إلى الفروق القائمة بين المرتبتين المشار إليهما، وخاصية كل واحدة منها في ذاتها"^(٣).
فوحدة الشهود: الوحدة ضد الكثرة، وأما الشهود جمع شاهد وهو في اللغة عبارة عن الحاضرة.

(١). ابن خلدون: فتوى بن خلدون في شأن التصوف بذيل كتاب شفاء المسائل تحقيق محمد ناويت الطنجي ينظر عرفان عبد الحميد دراسات في الفكر العربي الإسلامي من ٣١٩.

(٢). ابن خلدون المقدمة ص ٤٧٤.

(٣). عرفان عبد الحميد دراسات في الفكر العربي الإسلامي ص ٣١٠.

وفي اصطلاح القوم: عبارة عما كان حاضراً في قلب الإنسان وغلب عليه ذكره فإن كان الفالب عليه العلم فهو شاهد العلم وإن كان الفالب عليه الوجود فهو شاهد الوجود وإن كان الفالب عليه الحق فهو شاهد الحق^(١).

أما وحدة الوجود:

“ فهي مذهب فلسفى معقد جداً حيث يعبر عن موقف ثابت وأكيد يلزم عنه جملة قضائيا خطيرة في دائرة الأخلاق والدين، لعل من أخطرها القول بالوحدة المطلقة في دائرة الوجود... ويلزم عن مثل هذا القول جبيرة صارمة تتغطى معها الإرادة الإنسانية ويسير العالم فيه وفق ضرورة مطلقة وعالم هذا شأنه لا يتحدث فيه عن خير وشر، ولا عن قضاء وقدر ولا عن حرية وإرادة، فلا حساب ولا مسؤولية، ولا مدلول لطاعة أو معصية ولا ثواب ولا عقاب”^(٢). وهذه الأمور لا يقول بها مسلم فكيف بمن أشرب الإسلام منذ نعومة أظفاره، فشتان ما بين وحدة الشهود وما بين وحدة الوجود، أما إن أدعى أن ابن عربي قال بوحدة وجود فهذا منسوب له وعلى افتراض قوله فيجب أن نحمله محملأً حسناً لأنـه قال بالوجود بمعناه المصدري والمعنى المصدري لا يتصور إلا في الذهن ولا وجود له في الخارج وليس باعتبار اسم المفعول (الموجودات) فهذا لا يقول به عاقل.

ثم إن كبار الصوفية يحذرون من الخوض في الكشف وهذا ما ينقله ابن خلدون عنهم حيث يقول “بل حضروا الخوف في ذلك ومنعوه من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل

(١) - الجرجاني التعريفات (بدون طبعة أو تاريخ) من ٨٢

(٢) - عرفان عبد الحميد دراسات في الفكر العربي الإسلامي من ١١

يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الأتباع والاقتداء ويأمرن أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب^(١).

ويضيف ابن خلدون "إن المحققين من المتصوفة المتأخرین الحقوا بما يسمى "مقام الجمع"^(٢) الذي تظهر فيه الوحدة بين الموجودات "مقام الفرق"^(٣) وهو مقام التمييز بين الموجودات^(٤).

فالأولى تتجزء عن حالة (سكر)^(٥) والثانية تتجزء عن حالة (صحو)^(٦)

ويسمى الكلام الذي يطلقه الصوفي في حالة سكره (بالشطح)^(٧). وأما الكرامة فهي أعم من الكشف وهي أيضاً ليست غاية المريد في مجاهداته وإنما قد تحصل عرضاً عن غير قصد يقول الشيخ ابن عربي "اعلم أيديك الله أن الكرامة.. على قسمين حسية ومعنىـة. فالعامة ما تعرف الكرامة إلا الحسية مثل الكلام عن الخاطر والإخبار بالمغيبات الماضية والكافـنة والأـتـية. والأـخذ عن الكـون والمـشي على المـاء وـاخـتـراقـ الـهوـاء وـطـيـ الـأـرـضـ وـالـاحـتجـابـ وـعـنـ الـأـبـصـارـ وـإـجـابـةـ الـدـعـاءـ فيـ الـحـالـ".

(١) - ابن خلدون المقدمة ص ٤٧٥.

(٢) - هو الاستهلاك بالكلية في الله عند رؤية الجمال ينظر ابن عربي (الفتوحات المكية ١٢٣/٢).

(٣) - وهو الذي يشير إلى خلق بلا حق (المعجم الصوبي سعاد الحكيم - بيروت لبنان طاولة ١٩٨١ ص ٢٧٠).

(٤) - ابن خلدون المقدمة ١٠٧٣ تـقـلاً عن ناصيف نصار في الفكر الواقعي عند ابن خلدون - بيروت دار الطليعة ص ٧٩.

(٥) - غيبة بوارد قوي فـما هو غـيـبةـ إـلـاـ عـنـ كـلـ مـاـ يـنـاقـضـ السـرـورـ وـالـطـربـ وـالـفـرـجـ: ابنـ عـربـيـ الفـتوـحـاتـ المـكـيـةـ ٥٤٤/٢.

(٦) - رجوع إلى الإحسان بعد الفيـبةـ بـوارـدـ قـويـ. ابنـ عـربـيـ الفـتوـحـاتـ المـكـيـةـ ٥٤٦/٢.

(٧) - عـبـارـةـ مـسـتـفـرـيـةـ فيـ وـصـفـ وـحـدـ فـاضـ بـقولـهـ وـهـاجـ بـشـدـةـ عـلـيـانـهـ وـغـلـبـتـهـ السـرـاجـ الطـوـسـيـ اللـمـعـ ص ٤٥٤ - ٤٥٣.

فالعامة لا تعرف الكرامة إلا مثل هذا. أما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلا الخواص من عباد الله وال العامة لا تعرف ذلك. وهي أن يحفظ عليه آداب الشريعة وأن يوفق لإتيان مكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها والمحافظة على أداء الواجبات مطلقاً والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الفل للناس من صدره والحسد والحقن وسوء الظن وطهارة القلب من كل صفة مذمومة وتحليلته بالمراقبة مع الأنفاس ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء. أما الكرامات التي ذكرنا أن العامة تعرفها فكلها يمكن أن يدخلها المكر الخفي. ثم إذا فرضناها كرامة فلا بد أن تكون نتيجة عن استقامة أو تنتج استقامة لابد من ذلك وإنما ليست بكرامة... ولا يصبح كون ذلك كرامة إلا بتعریف إلهي لا بمجرد خرق العادة^(١).

ثم أن سفر ابن خلدون إلى مصر وإطلاعه على أوضاع أدعية التصوف هناك جعله يعزز هذا الموقف السلبي اتجاه من سماهم أصحاب التجلي والحضارات ويؤكد ما آتى إليه التصوف في مصر قول الإمام الشعراوي حيث يقول: "كان التصوف حالاً فصار كارا، وكان احتساباً فصار اكتساباً، وكان استماراً فصار اشتهرأ، وكان إتباعاً للسلف فصار إتباعاً للخلف، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للفروع، وكان تعفناً فصار تعليقاً، وكان تجريداً فصار ثريداً"^(٢).

ولكن ابن خلدون يقرر أمراً آخر حيث يقول: "وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرة من الرافضة الدائتين أيضاً بالحلول والهبة الأئمة

(١) - ابن عربي الفتوحات المكية ج ٢ الباب ١٨٦. أيضاً عن الدكتور يحيى هويدى - تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية ج ١ من ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٢) - الشعراوي الطبقات الكبرى. وأيضاً عن الدكتور يحيى هويدى - تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية القاهرة مكتبة الهوزة المصرية ١٩٦٥ / ١ - ٢٤٦.

مذهبياً لم يعرف لأولئم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم^(١) وقد علل ابن خلدون ذلك حسب ما رأه من التشابه في البناء الميكلاني حيث جعل مقارنة بين الإسماعيلية وبين السلطة الباطنية عند الصوفية فيقول: "وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساوي أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من آهل العرفان"^(٢) ثم يستشهد على ذلك بما قاله ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف حيث قال: "جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد. وهذا الكلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وإنما هو من أنواع الخطابة وهو يعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به"^(٣) إن من العجب أن نجد هذا الخلط بين التصوف السنوي الناصح البياض وبين التصوف الفلسفى وبين الإسماعيلية الباطنية فيجب إكمال هذه المقارنة والنظر إلى أهداف هذه الفئات الثلاث فالتصوف الفلسفي مشوب بسوء اعتقد والباطنية هدفها هدم الدين وأما التصوف السنوي فحقيقةه السعي بالرياضية والمجاهدة للوصول إلى مقام الحضرة والمشاهدة.

ثم يعود للمقارنة من ناحية الترتيب الهيكلي فيقول: "ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال"⁽⁴⁾ بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء

(١) - ابن خلدون المقدمة ٤٧٣.

٢) - المصدر نفسه.

(٥) - المصدر نفسه.

(٤) . الأبدال والبداء هم مبيعة رحال من مسافر من موضع وترك جسداً على صورته حياً ب حياته ظاهراً باعمال أصله بحيث لا يعرف أحد بأنه فقد وذلك هو البديل لا غير وهو في تلبية بالأجحاد والصور على

حتى أنهم لما أسندوا للباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلًا لطريقتهم
وتخليهم رفعوه إلى علي (رضي الله عنه) وهو من هذا المعنى أيضًا^(١).

أما في مقارنته هذه فنقول أن الإبدال قد ورد ذكرهم في السنة النبوية
بأحاديث كثيرة وبعده طرق وقد اختلف في عددهم قيل ثلاثة وقيل
أربعون وقيل ستون وقيل سبعون ذكرها جميعاً الإمام السيوطي في كتابه
الحاوي للفتاوى^(٢) في التصوف بباب الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد
والنجباء والإبدال.

وأما عن نسبة لباس الخرقة لعلي (رضي الله عنه) فإن الصوفية لم
يخصوا علياً وحده بلبس الخرقة حيث هنالك طرق صوفية تعود لأبي بكر
الصديق (رضي الله عنه) وكذلك غيره من الصحابة الكرام كحنديفة
الذي خصه رسول الله بمعرفة السر وهذه الطرق معروفة
ومشهورة حتى في عهد ابن خلدون كالشاذلية والنقشبندية وغيرها.

كلامه في المجنوب:

تكلم ابن خلدون في المجنوب بكلام يصفه بالمجنون أو الأحمق
ويخرجه عن زمرة المؤمنين لسقوط التكليف عنه فيقول: "ما زال
يختلج في نظري أن المجنوب هاقد لعقل التكليف وهو دون مراتب النوع
الإنساني فيكون خارجاً عن زمرة المؤمنين بما سقط عنه من التكاليف

صورته على قلب إبراهيم عليه السلام الجرجاني التعريفات طبع بالمطبعة حميدية المصرية سنة ١٢٢١ هـ
ص ٢٩.

(١). ابن خلدون المقدمة ٤٧٣.

(٢). السيوطي (ت ٩١١ هـ) حاولي ليفتاوى بيروت لبنان دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ج ٢ / من ٢٤١ - ٢٥٥ طبعة عن نسخة دار الكتب المصرية ودار الكتب الأزهرية.

ولا سيما العبادات فكيف يلحق بمراتب أولياء الله وبعد منهم كما هو معلوم قدِيماً وحدِيثاً وغير نكير حتى ألم الله إلى كشف الغطا عن ذلك بمنه وهدایته وذلك أن العقل الذي أناط به الشرع التكليف وهو عقل المعاش وهو قيام الإنسان على معاشه وتدبير منزله فإن فقد هذا العقل لنقص في ذاته وفي لطيفته الروحانية كسائر الحمقى والمجانين نزل عن مرتبة النوع الإنساني ولم يكن في شيء فضلاً عن الولاية^(١).

أما المجنوب في نظر الصوفية فهو مغایر لهذا الرأي الذي يعرضه ابن خلدون فقد عرفه الجرجاني في التعريفات الخاصة بالصطلاحات الصوفية التي ذكرها الشيخ محى الدين ابن عربي بقوله: "المجنوب من اصطفاه الحق لنفسه واصطفاه بحضوره أنسه وأطلمه بجانبي قدسه ففاز بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب"^(٢).

والمجنوب هو فاقد العقل التكليفي والجذب على نوعين جذب وقتي وهو المعبر عنه بلفظ السكر والوجد^(٣) وجذب دائم وهو ما يعبر عنه بالغيبة^(٤) والذهاب^(٥) ويعبرون عن المجنوب "بالمراد لأنَّه المجنوب عن إرادته مع تهيا الأمور له فهو يجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة"

(١) - ابن خلدون شفاء السائل تحقيق أغناطيوس من ٨٨.

(٢) - الجرجاني التعريفات ص ١٢٥ - ١٣٦.

(٣) - هو ما يصادف القلب من الأحوال المعيبة له عن شهوده ابن عربي اصطلاحات الصوفية ضمن رسائل ابن عربي ص ٦.

(٤) - غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشفل الحسن بما ورد عليه ابن عربي اصطلاحات الصوفية رسائل ابن عربي ص ٦.

(٥) - الذهاب: غيبة القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبه وكان المحبوب ما كان ابن عربي اصطلاحات الصوفية، ص ٩.

(١) والذي يبدو لي أن المجدوب هو من الشعث الغبر الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح: عن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ((رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))^(٢) وقد لاح لي خلال مراجعتي لتطور الفكر الحليوني أن ابن خلدون قد عدل عن رأيه الأول وخص المجدوب بكلام لطيف ما نصه: "من هولاء المریدین من المتصوفة قوم بهالیل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب لأنهم لا يتقيدون في شيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منهم بالعجز وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط فإن فضل الله يوتىه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهولاء القوم لم تعد نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين وإنما فقد لهم العقل الذي يناظر به التكليف وهي صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للإنسان يشتت بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم بق له عذر في قبول التكليف لإصلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بفائد نفسه ولا ذا هل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش

(١). ابن عربی مکتاب اصطلاحات الصوفیة ضمن رسائل ابن عربی ص ٢.

(٢). رواه مسلم صحيح مسلم بشرح النووي بيروت. لبنان دار الكتب العلمية، فضل الضعفاء والخاملين من ١٧٤.

ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويتحققون بالبهائم ولكل في تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهاليل لا تجد لهم وجهة أصلًاً ومنها أنهم يخلقون على البلة من أول نشأتهم والجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير والشر لأنهم لا يتوقفون على إذن لعدم التكليف في حقهم والجانين لا تصرف لهم^(١).

(١) - ابن خلدون المقدمة ص 110 - 111 .

الخاتمة

لقد أوضحت لنا صفحات هذا البحث أن ابن خلدون ذا شخصية لاحقة وهذه الشخصية كما يصفها (توبينبي): ((الشخصية الخلاقة بكونها تمر أثناء فترة الحلق بحالة صوفية خاصة يتحرر فيها صاحبها من علاقاته الاعتيادية ويسمو في جو آخر متصل بسر الوجود.

ويقول توبينبي: إن هذه الفترة تأتي عادةً عندما تسurg الشخصية من المجتمع وتعزل الناس. وبهذا يحدث عليها تحول كبير ترجع به أخيراً إلى الناس بصورة جديدة... ثم يقول توبينبي: إن فترة الاعتزال التي مر بها أولئك العظاماء قبل القيام بأعمالهم التاريخية الكبرى)).^(١).

والحقيقة نحن واجدون للتعرف على سر التغير والتطور في الفكر الخلدوني وقد وجدنا أن ابن خلدون يتماز بشخصية الرجل الحدي كما يقرر ذلك الدكتور علي الوردي في كتابه (منطق ابن خلدون)^(٢) وحسب اصطلاحات علم الاجتماع الحديث (Marginal Man) الرجل الحدي كما يقول الأستاذ بارك ((هو ذلك الذي يوضعه القدر بين مجتمعين أو ثقافتين متضادتين وبهذا يكون ذهنه كالبودقة التي تصهر فيها الثقافتان وتترنّج))^(٣) ولعلنا نجد في ذلك تعليلًا للاختلاف الحاصل في

(١). - ٢٢٢ - ٢٤٨ Arnold Toymbee.Op. Cit.Vol.IIIp.٢٤٨ عن د. علي الوردي منطق ابن خلدون ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢). - د. علي الوردي منطق ابن خلدون ص ١٦٣ .
(٣). - المرجع نفسه.

الآراء التي يطرحها ابن خلدون في (شفاء السائل) عن الآراء التي يطرحها في كتابه (المقدمة) ولعل تحليل آخر لشخصية الرجل الحدي يعطينا تعليلاً أوضح لهذا الاختلاف وهذا التحليل يقدمه الاستاذ (ستونكوسن) حيث يرى ((أن الرجل الحدي في حياته يمر بمراحل ثلاثة: وهذه المراحل هي على وجه التقرير كما يلي:-

- ١ - المرحلة الأولى: وهي التي لا يفطن فيها صاحبها إلى التناقض الذي يحيط به. إنه يأخذ الأمور كما هي ويعدها مما تقتضيه طبيعة الوجود، شأنه في ذلك شأن عامة.
- ٢ - ثم تأتي المرحلة الثانية حيث يبدأ التناقض الاجتماعي والثقافي يسيطر على الرجل. فتتشاءعندئذ في أعماق نفسه أزمة وتأخذ القيم التي نشأ عليها بالتفكك.
- ٣ - وتأتي المرحلة الثالثة أخيراً. وفيها يحاول الرجل إيجاد المسبيل للتوفيق بين العوامل المتناقضة في نفسه. وهو قد ينجح في ذلك أو يفشل. وكثيراً ما يكون الصراع النفسي أقوى مما تحتمله مواهب الرجل فتتفسخ شخصيته من جراء ذلك))^(١) وهذا الذي نرجحه كتحليل نفسي واجتماعي لشخصية ابن خلدون وللتباين الواضح في آرائه في مسائل التصوف من خلال كتابيه السابقي الذكر. ولا شك أن ابن خلدون شخصية موسوعية نادرة التكرار وعليه فأوجه من خلال هذا البحث الأنظار إلى دراسة التراث الخلدوني الذي يعتبر بحق مفخرة للأمة العربية والإسلامية والحقيقة أنه رغم وجود دراسات متعددة إلا أنه هناك أمور كثيرة لم تدخل مجال البحث والدراسة العلمية حتى الآن ونسأل الله

(١) . Ibid.p.١٢٢. نقلأ عن د. علي الوردي متنقاب ابن خلدون من ١٦٣ - ١٦٤ .

العليٰ القدير أَن ينفعنا وَالْمُسْلِمِينَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ بِسِيطٍ وَإِنْ هَذَا
غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ.

· (ولو أَنْ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهَا بِرَحْكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ) ^(١).



(١) سورة الأعراف الآية ٩٦.

المصادر

- ١ - ابن الأزرق . بدائع السلك في طبائع الملك . تحقيق علي سامي النشار بغداد ١٩٧٧.
- ٢ - ابن تيمية . الصوفية والفقراء . تعليق محمد رشيد رضا مطبعة المنار مصر طبعة الثانية ١٣٤٨ هـ . ١٩٢٠ م.
- ٣ - ابن الجوزي . تلبيس أبيليس مطبعة منشورات مكتبة التحرير.
- ٤ - ابن الجوزي . صفة الصفوه دار الوفي حلب - سوريا.
- ٥ - ابن الجوزي . المنتظم في أخبار الملوك والأئمّة.
- ٦ - ابن حجر العسقلاني . الإصابة في تمييز الصحابة مكتبة الكليات الازهرية - مصر.
- ٧ - ابن حجر العسقلاني . أبناء الفمر بأبناء العمر الطبعة الأولى حيدر آباد ١٩٧٢.
- ٨ - ابن حجر الهيثمي . مجمع الزوائد . عالم الكتب بيروت - لبنان.
- ٩ - ابن حزم . جمهرة أنساب العرب . تحقيق عبد السلام هارون - مصر ١٩٦٢.
- ١٠ - ابن خلدون . المقدمة مطبعة الخشاب . القاهرة مصر ١٣٢٢ هـ أيضاً مطبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت - لبنان.
- ١١ - ابن خلدون . شفاء السائل لتهذيب المسائل تحقيق أغناطيوس خليفة عبده اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية - بيروت - لبنان.
- ١٢ - ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً . دار الكتاب

- اللبناني - بيروت - لبنان.
- ١٢ - ابن خلkan . وفیات الاعیان فی أنباء أبناء الزمان . - تحقيق إحسان عباس دار صادر - بيروت - لبنان.
- ١٤ - ابن سعد . طبقات ابن سعد صادر دار بيروت ١٢٨٠ هـ . ١٩٦٠ م.
- ١٥ - ابن عربي . وسائل ابن عربي دار إحياء التراث العربي الطبعة الأولى ١٣٦١ هـ بيروت - لبنان.
- ١٦ - ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب في أخبار من ذهب مكتبة القدس . بيروت - لبنان.
- ١٧ - ابن فرuron المالكي . الدبياج المذهب في معرفة أعيان المذهب تحقيق محمد الأحمدى القاهرة . ١٩٧٢ م.
- ١٨ - ابن كثير . البداية والنهاية مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى.
- ١٩ - ابن ملقن طبقات الأولياء . تحقيق نور الدين شريبيه مطبعة دار التأليف . القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ . ١٩٧٣ م.
- ٢٠ - أبي داود . سنن أبي داود . دار الكتاب العربية . لبنان.
- ٢١ - أبو طالب المكي . قوت القلوب . دار الفكر . لبنان.
- ٢٢ - أبو العلا الفيفي . التصوف الثورة الروحية في الإسلام . دار الشعب . بيروت - لبنان.
- ٢٣ - أبي نعيم الأصفهاني . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . دار الفكر . بيروت - لبنان.
- ٢٤ - أحمد الشريachi . الغزالی والتصوف الإسلامي . الهلال . بيروت - لبنان.
- ٢٥ - أحمد شلبي . مقارنة الأديان أديان الهند الجزء الرابع .
- ٢٦ - أحمد مختار . في تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية . مصر.
- ٢٧ - أحمد الخشاب . التفكير الاجتماعي . دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية . مصر ١٩٧٠.

- ٢٨ - أحمد بابا التبكتي . نيل الابتهاج على هامش الديباج المذهب لابن فرحوت الطبعة الأولى . مصر ١٣٥١ هـ .
- ٢٩ - بدوي . عبد الرحمن . مؤلفات ابن خلدون الطبعة الثانية تونس ١٩٧٩ م .
- ٣٠ - البخاري . صحيح البخاري . دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .
- ٣١ - بال نثيا . انخل جنثالت تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٥٥ م .
- ٣٢ - البغدادي . تاريخ بغداد ومدينة السلام مطبعة السعادة مصر ١٣٤٩ هـ .
- ٣٣ - م.١٩٣١ تيسير شيخ الأرض . ابن خلدون الطبعة الأولى . بيروت ١٩٦٦ .
- ٣٤ - الجرجاني . التعريفات طبعة عالم الكتب . بيروت . لبنان .
- ٣٥ - الجابري . العصبية والدولة الطبعة الأولى الدار البيضاء ١٩٧١ .
- ٣٦ - الجيلاني . عبد القادر بن موسى . الفتنية لطاطبي طريق الحق . تحقيق فرج وليد توفيق مطبعة أوفسيت بغداد ١٩٨٨ .
- ٣٧ - المحاكم . المستدرك دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان .
- ٣٨ - حاجي الخليفة . مصطفى ابن عبد الله . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون اسطنبول ١٩٤١ .
- ٣٩ - خليل الحبر وآخرون . الفكر الفلسفي في مائة سنة . بيروت ١٩٦٢ .
- ٤٠ - الرازي . التفسير الكبير دار الكتب العلمية . طهران .
- ٤١ - روزنثال . فرانز . علم التاريخ عند المسلمين ترجمة أحمد صالح العلي . بغداد ١٩٦٣ .
- ٤٢ - الزبيدي . محمد مرتضى الحسيني . تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق مصطفى حجازي . الكويت ١٩٦٩ .
- ٤٣ - الزركلي . الإعلام الطبعة الرابعة . بيروت ١٩٧٩ .
- ٤٤ - الزمخشري . أساس البلاغة . دار الكتب العلمية . طهران .

- ٤٥ . ساطع الحصري . دراسات في مقدمة ابن خلدون الطبيعة الأولى مطبعة السعادة مصر ١٣٤٨ هـ ١٩٥٣ م.
- ٤٦ . السخاوي . الضوء اللامع لأهل القرن السابع . بيروت . لبنان .
- ٤٧ . السراج . الطوسي . اللمع . تحقيق وتقديم عبد الحليم وطه عبد الباقي سور مطبعة السعادة مصر ١٢٨٠ هـ .
- ٤٨ . السلمي . طبقات الصوفية . تحقيق نور الدين شريبه . مطبعة المدنى مصر الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .
- ٤٩ . سليمان مظہر . قصۃ الديانات . مطبعة الوطن العربي .
- ٥٠ . السمعاني . الأنساب الطبعة الأولى حیدر آباد ١٩٦٤ .
- ٥١ . السهروردي . عوارف المعارف دار الكتاب العربي بيروت . لبنان .
- ٥٢ . السيوطي تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محی الدین عبد الحميد الطبعة الأولى ١٩٥٢ .
- ٥٣ . السيوطي . الحاوی للفتاوى تحقيق وتعليق محمد محی الدین عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثالثة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩ م .
- ٥٤ . الشعراي . الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الآخيار مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ .
- ٥٥ . الشعراي . اليواقيت والجواهر . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة الأخيرة ١٣٧٨ هـ .
- ٥٦ . شهاب الدين الألوسي . الفيض الوارد على مرثية مولانا خالد لأبي الثنا شهاب الدين محمود الألوسي المطبعة الكستلية ١٢٧٨ هـ .
- ٥٧ . الشوكاني . البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع الطبعة الأولى مطبعة السعادة مصر ١٣٤٨ هـ .
- ٥٨ . شيخاني سمير . مع الخالدين بيروت ١٩٥٩ .
- ٥٩ . الصيرفي . نزهة النقوس والأبدان في تواریخ الزمان . تحقيق حسن حبشي

مصر ١٩٧١.

- ٦٠ . الطبراني المعجم الأوسط دار الكتاب العربي بيروت . لبنان.
- ٦١ . طه حسين . فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . مصر الطبعة الأولى ١٩٥٢ م.
- ٦٢ . عرفان عبد الحميد . نشأت الفلسفة الصوفية وتطورها مطبعة المكتب الإسلامي.
- ٦٣ . عرفان عبد الحميد . دراسات في الفكر العربي الإسلامي . دار الخليل .
لبنان . الطبعة الأولى ١٩٩١ .
- ٦٤ . علي الوردي . منطق ابن خلدون . القاهرة . ١٩٦٦ .
- ٦٥ . علي سالم النشار . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . الطبعة الرابعة
مصر ١٩٦٦ م.
- ٦٦ . علي أميل الخطاب التاريخي . (دراسة لمنهجية ابن خلدون) الطبعة
الثالثة بيروت ١٩٨٥ .
- ٦٧ . عماد الدين الأموي . حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحظوظ دار
الفكر بيروت . لبنان.
- ٦٨ . عمر رضا كحالـة معجم المؤلفين مطبعة الترقي . دمشق ١٢٧٦ هـ
١٩٥٧ م.
- ٦٩ . عبد الجبار عبد الرحمن دخائر التراث العربي الإسلامي الطبعة الأولى
البصرة ١٩٨١ .
- ٧٠ . عويس إبراهيم . ابن خلدون مفكراً اقتصادياً بحث مجلة
العربي عدد ٣٤٣ يونيو ١٩٨٧ .
- ٧١ . الفزالي . إحياء علوم الدين . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . أيضاً
عالم الكتب دمشق . سوريا .
- ٧٢ . الفزالي . المنقد من الضلال . تحقيق عبد الحليم محمود . دار الكتب
الحديثة مصر .

- ٧٣ . الغزالى . منهاج العابدين . تحقيق محمود مصطفى حلاوى . مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان.
- ٧٤ . الفاخوري . رضا . تاريخ الأدب العربي . بيروت - لبنان.
- ٧٥ . فؤاد أفراام وآخرون . دائرة المعارف . بيروت - لبنان . ١٩٦٠ .
- ٧٦ . لاكوس ستاليف . العلامة ابن خلدون ترجمة ميشال سليمان الطبعة الثانية بيروت - لبنان . ١٩٧٨ .
- ٧٧ . لسان الدين ابن الخطيب . الإحاطة بتاريخ غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان القاهرة ١٩٧٥ .
- ٧٨ . المحاسبي . الرعاية لحقوق الله . تحقيق عبد القادر أحمد عطا دار الكتب العلمية . الطبعة الرابعة . بيروت - لبنان .
- ٧٩ . محمد عبد الله عنان . ابن خلدون وتراثه الفكري الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٣ .
- ٨٠ . محمد إقبال . تطور الفلسفة الميتافيزيقية في فارس . مطبعة لاهور .
- ٨١ . نيكلسون . في التصوف الإسلامي . ترجمة نور الدين شريبه مكتبة الخانجي .
- ٨٢ . الهويجري . كشف المحجوب . ترجمة مفتى حكيم غلام معين الدين النعيمي مطبعة الوفاق لاهور .
- ٨٣ . ياقوت الحموي . معجم البلدان . بيروت - لبنان . ١٩٥٥ .

